الجزء ٧ المجلد ٥

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : تموز سنة ١٩٢٥ م الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٣ ومحرم ١٣٤٤ هـ

شعراء الشام

« في القرن الثالث »

« للسيد خليل مردم بك أُلقيت على اعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق لمناسبة انتخابه عضواً بالمجمع »

تمهيد

القرنُ الثالث من أيمنِ القرون على العربية وآدابها في كل الأقطارِ التي دخلت في حوزة العرب ، فلقد أزهرت في ذاك القرن حضارةُ اللغة ، وظهر به من الشعراء والمنشئين والأُدباء الأئمةُ العظام ، اما بحثنا هذا فمداره على أربعةٍ من شعراء الشام هم : العتّابي ، وابو تمّام الطائي ، وديك الجن ، والبحتري . عسانا نتبين منهم طريقة شعراء الشام في ذلك القرن ، وما لهم من الخصائص التي تميزهم عن غيرهم ، وما هو الأثر الذي أثروه في الشعر العربي .

من خصائص الشعر العربي أن له روحًا اذا تراءت للشاعر استحذى لها وملّكها قياده ، وأعني بذلك أنّ اختلاف أقطارِ الشعراء لا يكون له أثرٌ بينٌ في أسلوبهم البياني بمقدار ما بين أقطارهم من الفوارق ، فطابع الشعر العربي لا تمحوه طبيعةُ القُطر مهما بعُدَ عن قلب الجزيرة ، وانما تزيدُه وضوحًا او تُلحق به بعض إبهام بحسب طبْع الشاعر ، وعلةُ ذلك : أن العربَ من أشدّ الناس ضنًا بماضيهم وحنينًا اليه ، فلقد رُوِي عن ابن مقبلٍ الشاعرِ — الذي أدرك الجاهلية ومنّ الله عليه بالإسلام

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وبدّله بالظلمات نوراً وشهد ما صارت اليه العرب من العزّة — أنه كان يبكي أهل الجاهلية . وأخرى : أن شعرَ العرب أصحبه الله تعالى من الرَّوْعة القدسية ما أصحب دينهم الذي ما دان به جيلٌ من الناس الا اصبحوا أكثر تشدُّداً به من أصحابه .

قال الجاحظ : « فضيلةُ الشعر مقصورةٌ على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب ، والشعرُ لا يُستطاع ان يُترجَمَ ، ولا يجوزُ عليه النقل ، ومتى حُوِّل تقطَّع نظمُه وبطَلَ وزنه ، وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه ، وصار كالكلام المنثور ، والكلامُ المنثورُ المبتدأ على ذلك أحسنُ وأوقعُ من المنثور الذي حُوِّل عن موزون الشعر . ثم قال : ولو حُوِّلَتْ حكمةُ العرب لبطل ذلك المعجزُ الذي هو الوزن ، مع أنهم لو حوّلوها لم يجدوا من معانيها شيئًا لم تذكُرْه العجم » .

وقال ابن قتيبة : « ليس لِمُتأخّرِ الشعراء أن يخرجَ عن مذهب المتقدّمين فيَقِفَ على منزلٍ عامر و يبكي عند مُشيَّد البُنيان ، لأن المتقدّمين وقفُوا على المنزل الداثر والرسم العافي . او يرحلَ على حمار او بغل فيصفَهما ، لان المتقدّمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يَرِدَ على المياه العذبة الجواري ، لأن المتقدّمين وردُوا على الأواجن الطوامي . أو يقطعَ الى الممدوح منابتَ الشيح والحَنْوة والعَرار ، لان المتقدّمين جَرَوْا على قَطْع منابت الشيح والحَنْوة والعَرار » .

فماذا عسى تكونُ بعد ذلك خصائصُ شعراء الشام التي تميزهم عن غيرهم إذا تدبرنا عوامل النسب والبيئة والزمن والموهبة ؟

عاش شعراء الشام في قُطرٍ إن أعوزتهم به الفصاحة رَفَدَتهم بها البادية ، وان عافوا بها جفاء الأعراب ، أوَوْا الى حضارةٍ زاخر بحرها ، دعْ عنك اعتدال القُطر وجمالَ طبيعتِه ، وهم بعدُ إما عرب خُلّص ، او ممن جرى دم العرب في أعراقهم .

قال ابو منصور الثعالبي : « لم يزل شعراء عرب الشام أشعرَ من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام ، والسبب في تبريز القوم قديمًا وحديثًا على مَنْ سواهم في الشعر قُربُهم من خِطَطِ العرب ، ولا سيما أهلَ الحجاز ، و بُعْدُهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن بلاد العجم ، وسلامةُ السنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفُرْس والنَّبَط ومداخلتهم إياهم » .

أظْهَرُ مزيةٍ في شعراء الشام التثقيفُ ، وأعني به تهذيبَ شِعْرهم ، فشاعرُهم مهما كان مطبوعاً سريع الخاطر ، فانه لا يَرمي الكلامَ على عواهنه ، ولا يرسله إرسالاً ، بل ينظر في أعقاب قوافيه ، ويعود عليها بالتنقيح . وقد أشار الى ذلك عَدِيُّ بن الرِّقاع أحدُ شعراء بني أُمية ، وكان منزله بدمشق ، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، قال :

وقصيدةٍ قد بِتُّ أجمعُ بَيْنَها ... حتى أُقوِّمَ مَيْلَها وسِنَادَها
نَظَرَ الْمُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِه ... حتى يُقيم ثِقَافُه مُنْآدَها

وكان يطعنُ على شِعر كُثيِّر ويقول : هذا شعر حجازيّ مقرور إذا أصابه قرُّ الشام جَمَدَ وهَلك .

وقال ابو تمّام الطائي :

قد ثَقَّفَتْ منه الشآمُ وسَهَّلَت ... منه الحجازُ ورَقَّقَتْه المشْرقُ

وقال ايضاً يصف قصيدة له :

جاءتك من نظم اللسان قِلادةٌ ... سِمطان فيها اللؤلؤ المكنونُ
أحذاكها صَنعُ اللسان يَمُدُّه ... جَفْرٌ اذا نَضَبَ الكلامُ مَعينُ
ويُسيء بالإحسان ظنّاً لا كمَنْ ... هو بابنه وبشعره مفتونُ

وقال البحتري في تهذيب الشعر :

حجج تُخرس الألدَّ بألفا ... ظٍ فرادى كالجوهر المعدودِ
ومعانٍ لو فصلتها القوافي ... هجنت شعر جرولٍ ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدرك ... ن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البي ... ض اذا رحن في الخطوط السود

وكان البحتري يُلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً . فالتثقيف إذن خلقٌ في شعراء الشام وهو ما أُطلق عليه اسم الصنعة فيما بعد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ولكن الغرض الذي يذهب اليه المثقف يختلف باختلاف القائل وزمنه ، فقد يذهب الى الجزالة والحزونة كأبي تمام ، وقد يذهب الى العذوبة والسلاسة كالبحتري ، ولكن التثقيف لا ينفك عنهما . وكذلك اكثر شعراء الشام الذين نقدموهما اوتأخروا عنهما سواء أكانوا من شعراء الصنعة ام المعاني .

ومن مزايا شعراء الشام في القرن الثالث توفرهم على درس الادب العربي ، واشتغالهم بفنونه درساً وتأليفاً ، فلقد ألف العتّابي من الكتب : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الالفاظ ، وكتاب الاجواد . وتخرج به في الشعر منصور النمري الشاعر .

وابو تمام الطائي كان له من المحفوظات ما لا يلحقه فيه غيره ، قيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال ، وألف من الكتب : كتاب الحماسة ، وكتاب فحول الشعراء ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل ، وكان يعمل ان يدلّ في شعره على علمه باللغة وكلام العرب . والبحتري الف كتاب الحماسة ، وكتاب معاني الشعر . ولعل هذه المزية متوارثة بينهم من قبل القرن الثالث ، قال عديّ بن الرقاع :

وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم واحدةٍ لكي أزدادها

فيظهر مما تقدم ان من مزايا شعراء الشام (التثقيف والعلم) فلنبحث عن المثل الاعلى الذي انحوه في شعرهم بواسطة التثقيف والعلم .

قال صاحب الاغاني في ترجمة ديك الجن : انه يذهب مذهب الشاميين في شعره ، فما هو مذهبهم ؟

وقال الثعالبي : « كان الصاحب بن عباد يعجب بطريقة الشاميين المثلى التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم التجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي سنّ ثلمة فطوّراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله او يورده كما هو في رسائله .

وكان ابو بكر الخوارزمي يقول : ما فتق قلبي وشحذ فهمي وصقل ذهني وأرهف حدّ لساني و بلغ هذا المبلغ بي الا تلك الطرائف الشامية واللطائف الحلبية التي علقت بحفظي وامتزجت باجزاء نفسي » .

ومثل هذا الكلام عامٌ منتشر ، فما علينا الا ان نتابع البحث لعلنا ننتصف منه .

تبلج فجر القرن الثالث وكان الشعر العربي قد أتمّ طور انتقاله النسبي من البداوة الى الحضارة على يد بشّار بن برد وأصحابه ومن مقتضيات الحضارة التنوّق في كل شيء فشمل ذلك التنوق الشعر . ونشأ عنه تتبع البديع ، وكان العتابي في أوائل القرن الثالث فسلك تلك الطريقة وزاد بها على بشار ، وتلاه ديك الجن فأقبل على الصنعة ، وظلت صنعته سائغة لصدقه في شعره ، فانه لم يستجد به أحداً بل قصره على النسيب ، ووصف الخمر ، ورثاء عشيقته ، وبعض أصدقائه . وفي زمن ديك الجن نبغ ابو تمام الطائي فشغف بالجزالة ، وغاص على المعاني البعيدة ، وانصرف الى الصنعة ، وغلا فيها ، حتى عُدّ الإمام بهـا ، وعرفت هذه الطريقة بمذهب ابي تمام . وأدرك ابا تمام ابو عبادة البحتري ، وهما من قبيلة واحدة فأخذ عنه وحذا حذوه في البديع ، ولكن قوة طبعه وعذوبة لفظه أخفتْ أثر الصنعة في شعره .

فهؤلاء الاربعة الذين ظهروا من أوائل القرن الثالث الى أواخره كلهم مطبوع على قول الشعر — وان كانوا متفاوتين في ذلك الطبع — وكلهم لم يعتمد على طبعه وحده بل عانى الصنعة .

ولاي شيء بذلوا كل هذه العنـاية في سبيل اللفظ ؟ علة ذلك مجاراة الرأي السائد ، والتأثر بروح العصر واليك بعض الادلة على هذا الزعم :

كان دعبل الشاعر معاصراً لابي تمام وكان يثلبه و يقول : انه سروق للشعر ، فجاء بعد موت ابي تمام الى الحسن بن وهب ، فقال له رجل في المجلس : أنت الذي تطعن على من يقول :

وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع انجدني على ساكني نجد

فصاح دعبل : أحسن والله وجعل يردد : (فيادمع انجدني على ساكني نجد)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم قال رحمه الله : لو كان ترك لي شيئًا من شعره — لقلت انه أشعر الناس . فانظر الى ما فعل به الجناس وكيف استلّ سخيمته ، وأطلق لسانه بتقريظ ابي تمام وبترديد بيته .

والبحتري يقول :

واللفظُ حَلْيُ المعنى وليس يريـ ـك الصفر حسنًا يريكَه ذهبُـه

وفي كتب البيان والنقد التي أُلفتْ في القرن الرابع آراءٌ كثيرة تعظم من خطر اللفظ كثيراً ، ولا نمتري في انها كانت الآراء السائدة في القرن الثالث .

قال ابو هلال العسكري : « وليس الشأن في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي ، وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب ، والخلو من أَوَد النظم والتأليف ، وليس يطلب من المعنى الا ان يكون صوابا ، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته التي تقدمت » .

وقال ايضًا : « المعاني مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي ، وانما تتفاضل الناس في الالفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

وقال الآمدي في كتاب الموازنة : « وليس الشعر عند أهل العلم به الا حسن التأتي وقرب المأخذ واختيار الكلام ووضع الالفاظ في مواضعها ، وان يورَد المعنى باللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله وان تكون الاستعارات والتمثيلات لائقة بما استعيرت له وغير منافرة لمعناه ، فان الكلام لا يكتسي البهاء والرونق الا اذا كان بهذا الوصف ، الى ان قال : فان اتفق مع هذا معنى لطيف او حكمة غريبة او ادب حسن فذلك زائد في بهاء الكلام ، وان لم يتفق فقد قام الكلام بنفسه ، واستغنى عما سواه » .

بمثل هذه الآراء وهذه الاعتبارات اقبل الشعراء على الصنعة اللفظية ، ونحن لا نتعرض الى البحث في كونهم على خطأٍ او صوابٍ في ذلك ، وانما نريد ان نقولَ : هكذا كانت روحُ ذلك العصر ، وهكذا كان النقاد ينظرون الى جودة الكلام .

ولا أُريد ان اقفَ بك عند هذا الحد فتظن أن شعراء الشام انصرفوا الى اللفظ ولم يحفلوا بالمعنى ، كلا فهم ليسوا كذلك ، وانما حاولوا ان يبرزوا معانيهم باروَع صورة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من صور الجمال اللفظي في المفردات والتراكيب ، ولكن لامناص من التصريح بانهم لم يلتفتوا الى المعنى بمقدار ما التفتوا الى اللفظ متأثرين بالرأي السائد ، واليك شيئاً منه وان كنت قد وقفت على بعضه عند الكلام على اللفظ :

قال ابو هلال العسكري : « أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني بينهم فليس على احدٍ فيه عيبٌ الا اذا اخذه كله او أخذه فافسده وقصر فيه عمن تقدّمه .

وقال الآمدي : أما أخذ البحتري بعض معاني ابي تمام فليس بمانع من أن يكون اشعرَ منه ».

ومع ذلك فشعراء الشام لم يقصروا في معانيهم ، فابو تمام معدودٌ من اكثر الشعراء المحدثين اختراعاً للمعاني ، والبحتريُّ قلَّ من جاراه في تأليف المعاني وتنسيقها ، وعندي انه — في دقة وصفه وبعد نظره ، وحسن الاداء عما ينفعل به من المشاهد — اشعر بكثير ممن يأتيك بمعنى أبترَ — لكنه مخترع — وقريبٌ من البحتري ديك الجن والعتابي .

فمزايا شعراء الشام في القرن الثالث : (التثقيفُ) و (العلم) و (الاستقصاء) و(الجزالة) من غير إغرابٍ و (العذوبةُ) و(السلاسة) من غير تخنث . ومجموع ذلك يمكنك ان تسميه مذهب الشاميين الذين تولوا زعامة الشعر في القرن الثالث ، وتمذهب بمذهبهم شعراء بقية الأقطار .

وفي ترجمة كلٍّ من العتّابي وابي تمام الطائي وديك الجن والبحتري على حدة ما ينهضُ دليلاً على رُجحان هذا الزعم ، ويقوم حجةً على صحة هذه الدعوى .

* * *

العتابي

كلثوم بن عمرو العتّابي وكنيته ابو عمرو يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم التغلبي الشاعر أحد أصحاب المعلّقات ، واصل العتّابي من الشام من ارض قنسرين وكان يقيم في رأس عين . أدرك بشار بن برد وهو حدث وانشده شعره ، وصحب البرامكة ثم صحب طاهر بن الحسين وعلي بن هشام القائدين ووفد على الرشيد والمأمون ، وتلمذ له في الشعر منصور النمري وكان راويته ، وكان محمد بن موسى الضبي راويته ايضاً ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكاتبه عبد الله بن خراش من أهل الشام معدود من البلغاء ، توفي العتّابي في حدود العشرين والمائتين وكان تزهد .

هو شاعر معدود في الشعراء المقدمين وكاتب مترسل بليغ وخطيب واديب مصنف وله من الكتب : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب في المواعظ والآداب والحكم ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الالفاظ قال ابن النديم : انه طريف ، وكتاب الأجواد ، وله ديوان شعر يدخل في مائة ورقة . ولأحمد بن ابي طاهر كتاب في اختيار شعره . وكان العتّابي ممن يعمل الخرافات والأسمار على ألسنة الحيوان وغيره .

كل هذه الكتب لم يُبق الدهر على شيء منها في ما نعلم وليس لدينا ما ينقع الغلة من أخبار الرجل ولم يبق من شعره ونثره الا النزر اليسير مبثوثاً في كتب الأدب فنسترشد الله ونستهديه في التحدث عنه مع قلة المواد .

عاش الرجل بعيداً عن دور الخلفاء التي كانت مهوى أفئدة الشعراء ومنتجعهم ، وكان في طبعه عزوف عن المخالطة وميل الى العزلة ، ويظهر انه قضى شطراً غير قصير من حياته عزباً ، فقد قيل له : لو تزوجت فقال : اني وجدت مكابدة العفة خيراً من الاحتيال لمصلحة العيال ، وكان مستغنياً عن معاشرة الناس بكلب له ، قال محمد بن حرب : رأيت العتّابي ينادم كلباً ، يشرب كأساً ويولغه كأساً ، فكلمته في ذلك فقال : انه يكف عني أذاه ، وأذى سواه ، ويشكر قليلي ، ويحفظ مبيتي ومقيلي ، فهو من بين الحيوان خليلي . قال ابن حرب : فتمنيت ان اكون كلباً لاحوز هذا النعت . ويدل على كونه فقيراً قوله :

اني امرؤ هدم الإقتار مأثرتي واجتاح مابنت الايام من خطري

ولكنه راضٍ عن فقره وقانع بالذي ناله من ثروة الأدب ، قيل انه كان جالساً ذات يوم ينظر في كتاب فمرّ به بعض جيرانه فقال ايش ينفع العلم والأدب من لا مال له ؟ فأنشد يقول :

يا قاتل الله اقواماً اذا نفقوا ذا اللب ينظر في الآداب والحكم
قالوا وليس بهم الا نفاسته أنافعٌ ذا من الإقتار والعدم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس يدرون ان الحظ ما حرموا لحاهم الله من علم ومن فهم

وقال في الكتب :

لنا ندماء ما نملُّ حديثهم أمينون مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً وأمراً مسدَّدا
بلا علة تُخشى ولا خوف ريبة ولا نتقي منهم بناناً ولا يدا
فان قلت هم احياء لست بكاذب وان قلت هم موتى فلست مفندا

ودلّ على انه كان قصيراً قوله :

نهي ظراف الغواني عن مواصلتي ما يفجأ العين من شيبي ومن قصري

وكان ينظر الى اكثر الناس نظره للبهائم ، قال عثمان الوراق : رأيت العتابي يأكل خبزاً على الطريق بباب الشام فقلت له ويحك أما تستحي ؟ فقال لي : أرأيت لو كنا في دار فيها بقر كنت تستحي وتحتشم ان تأكل وهي تراك ؟ فقلت لا ، قال فاصبر حتى أعلمك انهم بقر ، فقام فوعظ وقصَّ ودعا حتى كثر الزحام عليه ثم قال لهم : روى لنا غير واحد انه من بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار فلم يبق احد الا وأخرج لسانه يومئ به نحو ارنبة أنفه ويقدّره حتى يبلغها ام لا ، فلما تفرقوا قال لي العتابي : الم أخبرك انهم بقر ؟

اما اتصاله بالرشيد فقد كان بطلب واستدعاء ، روي انه بلغ الرشيد قصيدة قالها فأعجب بها فطلب إشخاصه اليه وذلك خبر غريب يدل على استهجانه من القدوم على الخليفة ، فقد روي انه وافى الرشيد وعليه قميص غليظ وفروة وخفٌّ وعلى كتفه ملحفة جافية بغير سراويل ، وكانت المائدة اذا قدمت اليه اخذ منها رقاقةً وملحًا وخلط الملح بالتراب فاكله بها ، فاذا كان وقت النوم نام على الارض .

وصحب ايضاً البرامكة الذين أعجبوا بفصاحته كثيراً ، قال خالد البرمكي لولده : إن قدرتم ان تكتبوا انفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلاً عن رسائله وشعره فلن تروا ابداً مثله .

ووفد بعد الرشيد على المأمون ولكن بعد ان كتب باشخاصه اليه ، وكان المأمون يجله كثيراً ، قال جعفر بن المفضل : رأيت العتابي جالساً بين يدي المأمون وقد أسنَّ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فلما اراد القيام قام المأمون فاخذ بيده واعتمد الشيخ على المأمون فما زال ينهضه رويداً رويداً حتى اقله فنهض فعجبت من ذلك وقلت لبعض الخدم ما اسوأ ادب هذا الشيخ فمن هو ؟ قال العتابي .

ولكنه مع كل ما رأى من الحفاوة والقبول ، وما شهده من مظاهر الحضارة في بغداد وتوفر اسباب الترف ما زالت نفسه تحن الى العزلة وتقنع بما يسد العوز ، روي ان امرأته لامته وقالت له : هذا منصور النمري قد اخذ الاموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعاً وانت ههنا كما ترى فانشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... زوى الفقر عنها كل طرف ونالد
رأت حوطها النسوان يرفلن في الثرى ... مقلدة اعناقها بالقلائد
اسرك اني نلت ما نال جعفر ... من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امير المؤمنين اغضني ... بغصها بالمشرفات البوارد
رأيت رفيعات الامور مشوبة ... بمستودعات في بطون الأساود
دعيني تجيئني ميتتي مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد

وقد قيل له : لم لا تقصد السلطان فتخدمه ؟ فقال : لأني أراه يعطي واحداً لغير حسنة ولا يد ، ويقتل الآخر بلا سيئة ولا ذنب ، ولست ادري اي الرجلين انا ، ولست ارجو منه مقدار ما أخاطر به .

اما طريقته في شعره فطريقة التنقيح والتهذيب والتحيص وتخير الصور الجميلة من الالفاظ الجزلة من غير إغراب ، وهو في المحدثين كالنابغة في الجاهلية — والنابغة منفرد بحسن الديباجة وكثرة الرونق والجزالة وخلو شعره من العيوب — ولم يصل العتابي الى هذه المنزلة الا بعد الدرس الطويل ، ولا يفسر اجتماعه ببشار بن برد وهو حدث في العراق الا بالرحلة في طلب الادب ولقد جرى على سنن بشار في شعره قالوا : اول من فتق البديع من المحدثين بشار بن برد وابن هرمة ثم اتبعهما متتدياً بهما كلثوم بن عمرو العتابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وابو نواس .

قيل ان الرجل شاعر مطبوع متصرف في فنون الشعر واستدلوا على جودة طبعه وعدم تكلفه بقوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

رسل الضمير اليك تترى بالشوق ظالعة وحسرا
متزجيات ما بنين على الوجا من بعد مسرى
ما جف للعينين بعدك يا قرير العين مجرى
فاسلم سلمت مبرأ من صبوتي أبداً معرّى
ان الصبابة لم تدع مني سوى عظم مبرّى
ومدامعٍ عبرى على كبدٍ عليك اليوم حرّى

ولئن صح هذا المثال على طبعه فقلما يصح في غيره من شعره لان اشتغاله بالأدب ومعاناته التأليف واقتناءه الطريقة المتبعة في الشعر وقتئذ جعله لا يقتصر في الاعتماد على طبعه ، فأثر الصنعة ظاهر في اكثر شعره ، وكيف لا يكون ذلك وهو يقول : « الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وانما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدمت منها مؤخراً او أخرت منها مقدّماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى ، كما لو حوّل رأس الى موضع يد ، او يد الى موضع رجل ، لتحولت الخلقة وتغيرت الجبلة » .

أية صنعة هذه ؟ هي صنعة المصور البارع الذي يرسم الصورة بأبهى مظهر ثم يغشيها من مناسب الألوان ما يريدها بهجةً وروعةً ثم لا ينسى ان يمدّ لها الظل .

ولكن أتراه قادراً على العمل بشرطه ؟ فإليك مثالاً من شعره الذي يبدو عليه أثر الصنعة الرائعة قال :

وأشعثَ مشتاقٍ رمى في جفونه غريب الكرى بين الفجاج السباسب
أمات الليالي شوقه غير زفرةٍ تردّد ما بين الحشا والترائب
سحبتُ له ذيل السرى وهو لابسٌ دجى الليل حتى مج ضوء الكواكب
ومن فوق أكوار المطايا لبانةٌ أحلّ لها اكل الذرى والغوارب
اذا ادّرع الليل الجلى وكأنه بقية هنديٍّ حسام المضارب
بركب ترى كسر الكرى في جفونهم وعهد الغيافي في وجوهٍ شواحب

فأي مصور يصور ذلك الاشعث المشتاق فوق أكوار المطايا وهو لابس دجى الليل بركب بدا كسر الكرى في أجفانهم ونطق عهد الغيافي في أوجههم الشاحبة مثل هذا التصوير ، ولو واتاه ذلك أتراه قادراً على تصوير تلك الزفرة المتردّدة بين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الحشا والترائب وهاتيك اللبانة التي أحل لها اكل الذرى والغوارب كما صورها العتّابي بأشرف لفظ ؟ .

وروي ان الشعراء ازدحموا بباب المأمون فقال لهم علي بن صالح : هل فيكم من يحسن ان يقول كما قال أخوكم العتّابي ؟ .

ما ذا عسى مادح يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهيرُ
فت المادح الا ان السنا ... مستنطقات بما تحويه الضمائير

قالوا : لا والله ما منا أحد يحسن ان يقول مثل هذا وانصرفوا .

وقال دعبل : ما حسدت احداً قط على شعر كما حسدت العتّابي على قوله :

هيبة الاخوان قاطعةٌ ... لاخي الحاجات عن طلبهْ
فاذا ما هبتَ ذا أملٍ ... مات ما أملت من سببه

ومن شعره قوله في السحاب :

والغيم كالثوب في الآفاق منتشر ... من فوقه طبق من تحته طبقُ
تظنه مصمتاً لا فتق فيه فإن ... سالتْ عزاليه قلت الثوب منفتق
ان معمع الرعد فيه قلت منخرقٌ ... او لألأ البرق فيه قلت محترق

وقوله :

لومٌ يعيذك من سوء تقارفه ... ابقى لعرضك من قول يداجيكا
وقد رمى بك في تيهاء مهلكة ... من بات يكتمك العيب الذي فيكا

واغتاظ منه الرشيد مرة فطلبه فستره جعفر بن يحيى واستعطف الرشيد عليه فقال فيه :

مازلت في غمرات الموت مطّرحا ... يضيق عني فسيح الرأي من حيلي
فلم تزل دائباً تسعى بلطفك لي ... حتى اختلست حياتي من يدي اجلي

وبلغه ان عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء فقال :

قد كنت أرجو ان تكون نصيري ... وعلى الذي يبغي علي ظهيري
وطفقت آمل ما يرجى سيبه ... حتى رأيت تعلقي بغرور
فحضرتُ قبرك ثم قلت دفنته ... ونفضت كفي من ثرى المقبور

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورجعت مفتريًا على الامل الذي قد كان يشهد لي عليك يزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر اليه .

هذا النمط من الشعر — شعر النفوس المطمئنة الهادئة التي لم تطمح الى زخرف الدنيا ولم تمقتها لرأي فلسفي ولم يلح عليها حب مبرح — لا يوقظ في نفس سامعه ثورة ولا يطفئ منها جمرة ولكنه صورة متناسقة تسعد بها العين ، ونغمة هادئة تلذ السمع ، فهو شعر الدرس والتهذيب في التصور والتصوير .

* * *

اما رسائله فقد ذكروا انه كان حسن الاعتذار فيها ، ولكننا لم نقف منها على ما يفسح للبحث مجالاً رحبًا يستقيم فيه إبداء الرأي وانما اطلعنا على رسالتين صغيرتين نقلهما ياقوت في معجم الادباء ، قال ومن منثور كلامه :

اما بعد : فانه ما من مستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروه ، ومن انتظر بعاجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصتها .

وكتب الى آخر : من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك وانحاز الى نواحيك ، لم يخش المطنب في الثناء عليك ان يكون مفرطًا كما لا يأمن ان يكون مفرِّطًا ، فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط اولى من الاطناب الذي غايته التقصير ومآله الى الحشو .

وروى له القالي رسالة كتبها الى صديق له وهي :

اما بعد : أطال الله بقاءك ، وجعله يمتدُّ بك الى رضوانه والجنة ، فانك كنت عندنا روضة من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب اليها ، وكنا نعفيها من النجعة استتمامًا لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ، وادخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف ، واشتد علينا كلبها ، وغابت قطرتها ، وكذبتنا غيومها ، واخلفتنا بروقها ، وفقدنا صالح الاخوان فيها ، فانتجعتك وانا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك ، مع علمي بانك موضع الرائد ، وانك تغطي عين الحاسد ، والله يعلم اني ما أعدك الا في حومة الأهل ، واعلم ان الكريم اذا استحيى من إعطاء القليل ، ولم يمكنه الكثير ، لم يعرف جوده ، ولم تظهر همته ، وانا أقول في ذلك :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ظل اليسار على العباس ممدودُ وقلبه ابداً بالبخل معقودُ
ان الكريم ليخفي عنك عسرته حتى تراه غنياً وهو مجهودُ
وللبخيل على امواله عللٌ زرق العيون عليها اوجة سودُ
اذا تكرمتَ عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
بثَّ النوال ولم يمنعك قلته فكل ما سدَّ فقراً فهو محمود

قال فشاطره ماله حتى اعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه .

وطريقته في ذلك كطريقته في شعره من حيث الصنعة اللفظية ، ومعانيه في شعره احسن واوضح منها في هذه الرسائل . نعم من العبث ان يحكم الانسان على ترسله من هذا القدر القليل ، ولكن للعتّابي نفسه فقرة تدلنا على الطريقة التي كان يتبعها في رسائله ، قيل له بما قدرت على البلاغة ؟ قال بحلّ معقود الكلام . يريد بنثر النظم ومن ذلك ما كتبه الى صديق له وقد انكر عليه شيئاً .

إما ان تقر بذنبك فيكون إقرارك حجة علينا في العفو عنك ، والا فطب نفساً بالانتصاف منك فان الشاعر يقول :

أقرر بنفسك ثم اطلب تجاوزنا عنه فان جحود الذنب ذنبان

وذلك اعتراف منه باستعارة معاني غيره وهي طريقة لو انتفع بها العتّابي فقلما ينتفع بها غيره لان الوقت الذي يقضيه الانسان في استظهار الأشعار ليحلّ معقودها ويكون على ذكر مما يلائم الغرض الذي اليه يقصد ، لو قضى بعضه في التفكير وترويض النفس على تصيد المعاني لكان أجدى عليه ، ولو لم يكن العتّابي واسع العلم بالأدب كثير الرواية للشعر لما استقام له حل المعقود .

* * *

حدثناك عن العتّابي شاعراً وكاتباً مترسلاً وبقي علينا ان نحدثك عنه خطيباً فقد قال الجاحظ : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع بين الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتّابي وعلي الفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولّدين » .

ولكن اين خطبه ؟ وفي اي معنى كان يخطب ؟ لم نطلع على شيء منها ومع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذلك فاننا نقول ان صفة الخطيب بارزة فيه اكثر من صفة الشاعر والكاتب ، ولعلك تعجب من هذا الزعم ، فأرعني سمعك يزل عجبك .

دخل العتّابي على المأمون فقال له : يا كثوم بلغتني وفاتك فساءتني ، ثم بلغتني وفادتك فسرتني ، فقال له : يا امير المؤمنين لو قسمت هاتان الكلمتان على اهل الارض لوسعتاها فضلاً وإنعاماً ، وقد خصصتني منهما بما لا يتسع له أُمنية ولا يبسط لسواه أمل ، لانه لا دين الا بك ولا دنيا الا بملك . فقال له سلني ، فقال : يدك بالعطاء أطلق من لساني بالسؤال .

ووقف العتّابي بباب المأمون يلتمس الوصول اليه فصادف يحيى بن اكثم فقال له : استأذن لي على امير المؤمنين ، فقال له : لست بحاجبه ، قال العتّابي : فان لم تكن حاجباً فقد يفعل مثلك ما سألت ، واعلم ان الله عزّ وجلّ جعل في كل شيء زكاة ، وجعل زكاة المال رفد المستعين ، وزكاة الجاه إغاثة الملهوف ، واعلم ان الله عزّ وجلّ مقبل عليك بالزيادة ان شكرت ، او التغيير ان كفرت ، واني لك اليوم اصلح منك لنفسك ، لاني ادعوك الى ازدياد نعمتك وانت تأبى . فقال له يحيى أفعل وكرامة .

وكلم العتّابي يحيى بن خالد في حاجة بكلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقلّ ، فقال له : وكيف لا يقلّ ؟ وقد تكنّفني ذلّ المسألة ، وحيرة الطلب ، وخوف الرد .

ووجد عليه الرشيد فدخل سراً مع المتظلمين بغير إذن وقال له : يا امير المؤمنين قد آذنني الناس لك ولنفسي فيك ، وردّني ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولئم الصائن لنفسي كنتُ ، لو اعانني عليك الصبر .

وقال له مالك بن طوق : اما ترى عشيرتك — يعني بني تغلب — كيف تدل عليّ وتستطيل وانا اصبر ، فقال العتّابي : ايها الأمير ان عشيرتك من احسن عشرتك ، وان عمك من عمك خيره ، وان قريبك من قرب منك نفعه ، وان احب الناس اليك اخفهم ثقلاً عليك .

فقل لي ايها القارئ رعاك الله اليس هذا الأسلوب من القول أسلوباً خطابياً ، وكيف لا يكون من يرتجل مثل ما سمعت خطيباً مصقعاً ؟ فالعتّابي اذاً خطيب مفوّه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

شديد العارضة سريع الخاطر لا يتلجلج ولا يتوقف ، وهو لا يقر بالبلاغة الا لمن كان كذلك ، فقد سأله صديق له عن البلاغة فقال : كل ذي كلام افهمك صاحبه حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ ، فقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحبسة وما الاستعانة ؟ قال اما تراه اذا تحدث قال عند مقاطع كلامه يا هناه ! اسمع مني ، واستمع اليَّ ، وافهم ، وألست تفهم ، هذا كله عي وفساد .

ولو ارسل المتنبي نفسه على سجيتها في شعره ورسائله كما كان يرسلها في كلامه لأتى بالرائع من الشعر والترسل وان كان الذي اتى به غاية في الحسن .

وبعد فالمتنبي شاعر بارع ، ومترسل فصيح ، وخطيب مفوّه ، واديب كبير ، ومؤلف محسن ، واستاذ منجب ، وقد جوّد في كل ما عاناه من ذلك ، وقلما اجتمعت هذه الصفات في غيره ، ولعله لو انصرف لواحدة منها لكان بها عبقرياً .

للبحث صلة

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : آب سنة ١٩٢٥ م الموافق محرم وصفر سنة ١٣٤٤ هـ

شعراء الشام في القرن الثالث

= ٢ =

ابو تمّام الطائي

ابو تمّام حبيب بن أوس الطائي ولد بقرية جاسم من بلاد الجيدور من اعمال دمشق سنة (١٩٠) وخدم حائكاً وعمل عنده بدمشق وكان ابوه خمّاراً بها ، ورحل في حداثته الى مصر وكان يسقي الناس ماء بالجرة في المسجد الجامع بها ، ثم جالس الادباء فأخذ عنهم وتعلم وكان فطناً فهماً يحب الشعر فلم يزل يعانيه حتى أجاده ، ولكنه لم يحمد مقامه في مصر فإن له قصيدة يتشوق بها الى دمشق و يشكو تقتير الرزق عليه في مصر نروي منها هذه الأبيات .

سقى الرائح الغادي المهجرُ بلدةً ... سقتني أنفاس الصبابة والخبلِ
فجاد دمشقاً كلها جودَ اهله ... بأنفسهم عند الكريهة والبذل
فلم يبق في ارض البقاعين بقعةٌ ... وجاد قرى الجولان بالمسبل المطل
بنفسي ارض الشام لا أيمن الحمى ... ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل
عدتني عنكم مكرهاً غربة النوى ... لها وطرٌ ان تُمرَّ ولا تحلي
أخمسة اعوام مضت لمغيبه ... وشهران بل يومان ثكل على ثكل
توانى وشيك النجح عنه ووكلت ... به عزمات أوقفته على رجل
قضى الدهر مني نحبه يوم فتله ... هواي بإرقال الغريرية الفتل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نأيت فلا مالاً حويت ولم أُقِم فأمنع اذا فجعت بالمال والأهل
بخلتُ على عرضي بما فيه صونه رجاء اجتناء الجود من شجر البخل
عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة دعتني الى ان أفتح القفل بالقفل

ومن هذه الابيات يعرف ان مدة اقامته في مصر كانت خمس سنوات قضاها بالضنك ، ولم يسلم من عداوة شعراء مصر فقد ورد في ديوانه قصيدتان يهجو بهما يوسف السراج الشاعر المصري ، ومهما يكن فان اوليته في الادب كانت في مصر ومنها سار شعره وشاع ذكره وبلغ المعتصم خبره فحمله اليه وقدمه على شعراء وقته ، وجالس في بغداد الأدباء وعاشر العلماء وكانت بعد ذلك حياته القصيرة رحلة طويلة فقد رحل الى مكة حاجاً وله قصيدة في ذلك منها :

وقد أممت بيت الله نضواً على عيرانة حرف سعوم
أتيت القادسية وهي ترنو اليَّ بعين شيطان رجيم
فما بلغت بنا عسفان حتى رنت بلحاظ لقمان الحكيم

وذهب الى خراسان مادحاً عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، والى ارمينية مادحاً خالد بن يزيد ، والى بلاد الجبل مادحاً محمد بن الهيثم ، وزار نيسابور وأبرشهر والموصل وغيرها ، ولا أدلُّ على كثرة أسفاره من قوله :

ما اليوم اول توديعي ولا الثاني البين أكثر من شوقي واحزاني
دع الفراق فان الدهر ساعده فصار املك من روحي وجثماني
خليفة الخضر من يربع على وطنٍ في بلدةٍ فظهور العيس أوطاني
بالشام أهلي وبغداذ الهوى وانا بالرقمتين وبالفسطاط اخواني
وما اظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بي اقصى خراسان
خلّفت بالأفق الغربي لي سكناً قد كان عيشي به حلواً بحلوان

وقوله ايضاً :

سلي هل عمرت الثغر وهي سباسبٌ وغادرت ربعي من ركابي سباسبا
وغرّبت حتى لم اجد ذكر مشرق وشرّقت حتى قد نسيت المغاربا

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان أبو تمّام موصوفاً بالظرف وحسن الاخلاق وكرم النفس من ذلك انه كان يرى الادب نسباً و يرى له حقاً واجب الرعاية قال :

وقرابة الآداب تقصر دونها عند الأديب قرابة الأرحام

وقال في علي بن الجهم الشاعر وقد أراد سفراً :

هي فرقةٌ من صاحب لك ماجدٍ فغداً إذابة كل دمع جامدِ
فافزع الى ذخر الشؤون وعُدّهِ فالدمع يُذهب بعض جهد الجاهد
وإذا فقدت أخاً فلم تفقد له دمعاً ولا صبراً فلستَ بفاقد
أعلي يا ابن الجهم إنك دفت لي سمّاً وجمراً في الزلال البارد
إن يكد مطّرف الاخاء فإننا نغدو ونسري في إخاء تالد
او يختلف ماء الوصال فماؤنا عذبٌ تحدّر من غمامٍ واحد
او يفترق نسبٌ يؤلف بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالد

وقال : أيُّ شيءٍ يكون أحسن من صبٍّ أديب متيمٍ بأديب

ومن ذلك قوله يصف سحابة ويمثل فرح الارض بها بفرحة الأديب بالأديب

لما بدت للارض من قريب تشوّفت لوبلها السكوب
تشوق المريض للطبيب وطرب المحب للحبيب
وفرحة الأديب بالأديب

وفي أخذه بضبع البحتري و إطرائه له وتقديره اياه احسن دليل على عطفه على الادباء وحبه لهم ، وهذا خلق يكبره الانسان اذا علم ان التحاسد اظهر مايكون بين الشعراء .

* * *

وكان ابو تمّام يتولى عليّاً وآله عليهم السلام وله في ذلك قصيدة منها قوله :

فعلتم بابناء النبي ورهطه أفاعيل ادناها الخيانة والغدرُ
ومن قبله أخلفتمُ لوصيّه بداهية دهياء ليس لها قدر
أخوه اذا عُدّ الفخار وصهره فلا مثله أخ ولا مثله صهر
وبوم الغدير استوضح الحقّ اهلهُ بضيحاء لافيها حجاب ولا ستر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقام رسول الله يدعوهم بها ليقربهم عرف ويناهم نكر
بمدٍّ بضبعيه ويعلم انه ولي ومولاكم فهل لكم خبر
فكان لهم جهر باثبات حقه وكان لهم في برهم حقه جهر
جعلت هواي الفاطميين زلفةً الى خالقي مادمت او دام لي عمر
وكوّفني ديني على ان منصبي شآم ونجري أيةً ذكر النجر

ولكنه مع ذلك اذا مدح بني العباس اثبت لهم من الحق في الخلافة ما ينتفي معه حق علي واولاده منها كقوله من قصيدة في الواثق :

فرسان مملكة أسود خلافة ظلّ الهدى غابٌ لهم وعرين
قوم غدا الميراث مضروباً لهم سور عليه من القُران حصين
فيهم سكينة ربهم وكتابه وإمامتاه واسمه المخزون

وكقوله من قصيدة في المعتصم :

فالأرض دار اقفرت مالم يكن من هاشمٍ ربٌّ لتلك الدارِ
سور القران الغرّ فيكم أُنزلت ولكم تصاغ محاسن الاشعار

وكقوله من قصيدة في الواثق :

ورث الخلافة عن اسنه التي منعت حمى الآباء والاعمامِ
أخذ الخلافة بالوراثة أهلها وبكل ماضي الشفرتين حسام
فلسورة الأنفال في ميراثه آثارها ولسورة الانعام
لاقدح في عود الخلافة بعدما متّت اليك بحرمة وذمام
هيهات تلك قلادة الله التي ما كان يتركها بغير نظام
إرث النبي وجمرة الملك التي لم تخل من لهب بكم وضرام
مذخورة احرزتها بحكومة لله تشدخ أرؤس الحكام
لسنا مريدي حجة نشفي بها من ريبة سقماً من الاسقام
فالصبح مشهور بغير دلائل من غيره انبعثت ولا أعلام

فبأي اقواله نأخذ لنعلم أشيعياً متشدداً كان أم من غلاة النواصب ؟ ولكن اذا أمعنا في البحث وجدنا ان قصيدته في الامام علي قالها في مصر قبل ان يتصل بالخلفاء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كما يعلم ذلك من القصيدة نفسها ، فلما وفد على المعتصم كان لا يزال مواليًا عليًا فمدحه بقصيدة لم يسرف فيها بمدح آل العباس ولم يسلب آل البيت حقهم فقال منها:

آل النبي اذا ماظلمة طرقت كانوا لنا سرجًا انتم لها شعلُ (١)

ثم لما أغدق عليه الخلفاء إعطياتهم أباح لنفسه أن يقول بهم ماسمعت و يجعل الخلافة إرثاً وحقًا لهم نصَّ عليه القرآن وأنزلت به براءة من الرحمن .

ولأبي تمّام كما لغيره من الشعراء ضرائب واشكال من مثل ما سمعت فهو يقول في الافشين والمعتصمُ راضٍ عنه :

لم يقر هذا السيف هذا الصبر في هيجاء الا عزَّ هذا الدينُ
قد كان عذرة مغرب فافتضَّها بالسيف فحل المشرق الافشين
فسيشكر الاسلام ما أوليته والله عنه بالوفاء ضمين

ثم يقول لما قتله المعتصم وحرقه :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الواري
ناراً يساور جسمه من حرها لهبٌ كما عصفرتَ شق إزار
صلى لها حيًّا وكان وقودها ميتًا و يدخلها مع الفجار
وكذاك اهل النار في الدنيا همُ يوم القيامة جلُّ اهل النار

والذنب في مثل هذا الرياء يشترك به المادح والممدوح فان الخلفاء والملوك لم يرفعوا من قدر الشعر بمقدار ما وضعوا من اخلاق الشعراء .

* * *

قالوا وكان ابو تمام اسمر طويلاً فصيحًا حلو الكلام فيه تمتمة يسيرة وفي ذلك يقول ابن المعذل او ابو العميثل :

يانبيَّ الله في الشعـ ـر ويا عيسى ابن مريمْ
انت من أشعر خلق اللـه ما لم تتكلم

(١) في تاريخ ابن عساكر : إن اول قصيدة مدح بها ابو تمّام المعتصم القصيدة التي منها هذا البيت :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال صاحب الاغاني : وكان إنشاد ابي تمام قبيحاً وكان له غلام اسمه الفتح اشتراه بثلاثمائة دينار لينشد شعره وكان غلاماً اديباً فصيحاً .

وولى الحسن بن وهب ابا تمام بريد الموصل فاقام بها اقل من سنتين وتوفي بها سنة (٢٣١) قال البحتري : وبنى عليه ابو نهشل بن حميد الطوسي قبة ، وقال ابن خلكان : رأيت قبره بالموصل خارج باب الميدان على حافة الخندق والعامة تقول هذا قبر تمام الشاعر . ورثاه الحسن بن وهب وابن الزيات وديك الجن والبحتري .

* * *

رزق ابو تمام شهرة في حياته وبعد مماته قل ما ظفر بمثلها شاعر فقد تولى زعامة الشعر فكان الشعراء يعرضون عليه اشعارهم كما عرض البحتري عليه شعره بحمص إقراراً بامامته واعترافاً بفضله ، وقد زعم بعضهم انه ما كان احد من الشعراء يقدر على ان يأخذ درهماً بالشعر في حياة ابي تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه . وظل المثل الاعلى لاكثر الشعراء اكثر من الف سنة يتحدون طريقته ويطبعون على غراره ولو اردنا ان ننقل ماقيل فيه من التقريظ والثناء لطال نفس الكلام واقلك ذلك ان ابا تمام والبحتري والمتنبي هم الثلاثة المجمع على تقديمهم والمختلف في ايهم اشعر .

لانريد ان نروي آراء الناس في الرجل على علاتها ولكن نحاول ان نعرف الأسباب التي أهلته لتبوء هذه المنزلة . الأسباب التي كونت عظمة ابي تمام ثلاثة على ما نظن : العلم ، والثقة بالنفس ، والاختراع .

أما علمه : فقد اتفق الرواة على انه كان له من المحفوظات مالا يلحقه فيه غيره ، قيل انه كان يحفظ اربع عشرة الف أرجوزة غير القصائد والمقاطيع ، وقال هو عن نفسه : لم أنظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديواناً للنساء خاصة دون الرجال ، والكتب التي جمعها تدل على سعة اطلاعه وهي : كتاب الحماسة الذي دل على غزارة فضله وإتقان معرفته وحسن اختياره ، وكتاب فحول الشعراء جمع فيه بين طائفة كبيرة من شعراء الجاهلية والمخضرمين والاسلاميين ، وكتاب الاختيار من أشعار القبائل . ولم يكن علمه محصوراً في الشعر وانما كان مضطلعاً بعلوم العربية حتى ذكره الانباري في طبقات الادباء النحاة دون غيره من الشعراء الذين عاصروه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وفي تاريخ ابن عساكر : انه حدّث عن صهيب بن ابي الصهباء الشاعر والعطاف ابن هرون وكرامة بن ابان العدوي وابي عبدالرحمن الاموي وسلامة بن جابر الهندي ومحمد بن خالد الشيباني وروى عنه خالد بن شريد الشاعر والوليد بن عبادة البحتري ومحمد بن ابراهيم بن عتاب والعبدوي البغدادي .

وانت اذا نظرت في ديوانه رأيت أثر العلم بادياً فيه كإيراد امثال العرب [1] وذكر قبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأبطالهم وفرسانهم واجوادهم وحكمائهم وشعرائهم وكالإلماع الى تاريخ الفرس [2] ولا تعدم في الديوان العثور على الإشارات النحوية [3] والاصطلاحات العلمية كالخصوص والعموم [4] وسيرد في معانيه المخترعة مسألة من مسائل الدور في الفقه .

وقال ابو عبد الله الرقي : رأيت من ابي تمّام رجلاً عقله وعلمه فوق شعره، وقال الآمدي : كان ابو تمّام مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية وان العلم في شعره أظهر وانه أتى في شعره بمعان فلسفية .

واما ثقته بنفسه : فقد كان يرى ان المتأخر يدرك شأو المتقدم وان الشعر صوب العقول فكما ان العقل لم يقصر على زمن دون زمن فكذلك الشعر قال :

يقول من تقرع أسماعه كم ترك الاول للآخر

وقال : فلو كان يفني الشعر أفناه ما فرت حياضك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب منه أعقبت بسحائب

وربما قادته هذه الثقة الى الإعجاب الشديد بنفسه قال ابو هلال العسكري : كان البحتري يلقي من كل قصيدة يعملها جميع ما يرتاب به فخرج شعره مهذباً وكان ابو تمّام لا يفعل هذا الفعل وكان يرضى بأول خاطر فنعي عليه عيب كثير . وقال

(١) كقوله : الا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من احدى بلي
(٢) كقوله : بل كان كالضحاك في سطواته بالعالمين وانت أفر يذبونُ
(٣) كقوله : خرقاء يلعب بالعقول حبابها كتلاعب الافعال بالاسماء
(٤) كقوله : لن ينال العلى خصوصاً من الفتـ ـيان من لم يكن نداه عموما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

صاحب الاغاني : روي عن بعض الشعراء ان ابا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها لا في بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب ، فقال له : انا والله اعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والسافط وكلهم حلو في نفسه فهو وان أحب الفاضل لم يبغض الناقص وان هوي بقاء المتقدّم لم يهو موت المتأخر . وقال له رجل لِمَ لا تقول من الشعر ما يُفهم ؟ فقال له وأنت لم لا تفهم من الشعر ما يُقال ؟

وهو بعد يرى نفسه أشعر الثقلين قال يخاطب ناقته في حجة حجّها :

أقول لها وقد أوحت بعين إليّ تشكيّ الدنف السقيم
يكورك أشعر الثقلين طرّاً وأوفى الناس في حسب صميم

واما اختراعه : فقد عدّه صاحب العمدة اكثر الشعراء المولدين اختراعاً فقال : اكثر المولدين معاني وتوليداً فيما ذكره العلماء ابو تمام ، وقال في موضع آخر : اكثر المولّدين اختراعاً وتوليداً فيما يقول الحذاق ابو تمام وابن الرومي ، وكان ابن الرومي يقول : ابو تمام يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تمّ له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها ، وسئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام فقال : كان اغوص على المعاني وانا أقوم بعمود الشعر .

وقال الآمدي : وجدت اهل البصرة من أصحاب البحتري ومن يقدّم مطبوع الشعر دون متكلّفه لا يدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والإبداع والإغراب والاستنباط لها ، وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بتقويم الفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة وانه اذا لاح له معنى اخرجه باي لفظ استوى من ضعيف او قوي .

وقال صاحب الاغاني : ابو تمام لطيف الفطنة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره .

وقال صاحب المثل السائر : قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عدّت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى فمن ذلك قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يا ايها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كثبُ
ليس الحجاب بمقصٍ عنك لي املاً إن السماء ترجى حين تحتجب

وقوله : رأينا الجود فيك وما عرضنا لسجلٍ منه بعد ولا ذنوب
ولكن دارة القمر استهمت فدلتنا على مطر قريب (١)

وقوله : واذا اراد الله نشر فضيلةٍ طويت اتاح لها لسان حسودِ
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله : لا تنكروا ضربي له من دونهِ مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

وقوله : لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله في الشيب :

شعلة في المفارق استودعتني في صميم الفؤاد ثكلا صميماً
يستثير الهموم ما اكتنَّ منها صعداً وهي تستثير الهموما

قال ابن الأثير : فالبيت الثاني من المعاني المخترعة وقد تفقّه فيه فجعله مسألة من مسائل الدور وهذا من إغراب ابي تمام المعروف وهذا القدر كاف من جملة معانيه فانا لم نستقصها ههنا .

وذكر صاحب العمدة من معانيه المخترعة قوله :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى قبورٌ لكم مستشرفات المعالم
غوامض قيد الكف من متناول وفيهـا علاً لا يرتقى بالسلالم

وقوله : يأبى على التصريد الا نائلاً ان لم يكن محضاً قراحاً يمذقِ
نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فأرة المسك التي لم تفتق

* * *

كان ابو تمام مع غزارة علمه وثقته بنفسه وقوة اختراعه نسيج وحده في جزالة الالفاظ وشدة أسر الشعر وحسن الديباجة وكرمها يؤثر الصنعة كثيراً وهو صاحب

(١) نقل بعد هذين البيتين بيتين لم نستحسن نقلهما .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مذهب في البديع عرف به وان كان غيره سبقه اليه وقال القليل منه ولكن ابا تمام التزمه في كل شعره وجعله ركن الشعر وعموده ومن أجله حجر على نفسه واسعاً وألزمها مالا يلزم .

ومن عجيب ولعه بالصنعة انه اقام شطر بيت فيه طباق حسن مقام النسب ، قال الفتح غلام ابي تمام ، سألت مولاي ابتمام عن نسب دعبل فقال هو دعبل بن علي الذي يقول .

« ضحك المشيب برأسه فبكى »

يحاول ابو تمام ان يطبق مذهبه في البديع على كل بيت من شعره بل على كل كلمة وفي ذلك من الاخذ بالشدة مالا مزيد عليه ، سمعه اسحق الموصلي ينشد شعراً له فقال له : « يا هذا لقد شققت على نفسك ان الشعر لاقرب مما تظن » .

وما اعجب لشيء كعجبي هذا الرجل كيف تمكن من الاجادة مع هذا الاستقصاء في البديع فهو كمن يريد ان يبني هرماً من ارجل النمل او ينقش صورة الاقاليم على فص خاتم . .

والعجب من ذلك ان هذه العناية باللفظ لم تصرفه عن العناية بالمعنى فقد كان يغوص على المستصعب منه كما مرّ بك .

بلغ ابو تمام ذروة الشعر ولكن سلك اليها طريقاً وعراً صعب المسالك ما سلكه احد من الشعراء بعده و بلغ مبلغه ، ولقد احسن المتنبي لما أعجزه هذا الطريق فتحول عنه الى غيره فأتى بما ملأ الدنيا وشغل الناس .

ولو لم يكن البحتري سيد المطبوعين على قول الشعر لما حدّثته نفسه بتحدي ابي تمام على انه وان مال الى الصنعة في شعره فالطبع فيه أبين وأظهر .

نعم انا لا أنكر ان ابا تمام صاحب مذهب في الشعر ولكن مذهبه على إحكامه شاقّ يعجز أتباعه عن اتباع قواعده واحكامه كما سنّت ، فصاحبه اشبه بناسك غلا في الزهد والتقشف والاخذ بالعزائم فأكبره مريدوه ولكنهم عجزوا عن مجاراته فانصرف عنه بعضهم واكثر من بقي حوله كان زهده رياء ونفاقاً وكذلك حال الشعراء بعد ابي تمام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلا عجب اذا تعب ابو تمام في شعره ووجد شدة في قرضه — ومذهبه في اللفظ وغوصه على المعنى كما علمت — فقد روي عنه انه كان فيه ابطاء بقول الشعر ، وقال صاحب العمدة : كان ابو تمام يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك في شعره ، وحكى بعض اصحاب ابي تمام قال استأذنت عليه فدخلت في بيت مصهرج قد غسل بالماء فوجدته يتقلب يميناً وشمالاً ، فقلت لقد بلغ بك الحر مبلغاً شديداً ، قال لا ولكن غيره ومكث كذلك ساعة ثم قام كأنما أطلق من عقال فقال الآن أردت ثم استمد وكتب شيئاً لا أعرفه ، ثم قال أتدري ما كنت فيه منذ الآن قلت كلا قال قول ابي نواس:

« كالدهر فيه شراسة وليانُ »

أردت معناه فشمس عليَّ حتى أمكن الله منه فصنعت :

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فأنت لا شك فيك السهل والجبلُ

قال صاحب العمدة : ولعمري لو سكت هذا الحاكي لنمَّ هذا البيت بما كان داخل البيت لان الكلفة فيه ظاهرة والتعمل بيّن .

ولابي تمام فصل في قرض الشعر ينم على شدة اهتمامه ومبلغ تنوقه ، قال المجتبى: كنت في حداثتي اروم الشعر و كنت ارجع فيه الى طبع ولم أكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضائه حتى قصدت ابا تمام فانقطعت فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه ، فكان اول ماقال لي : يا ابا عبادة ! تخير الاوقات وأنت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم ، فان اردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق ، واذا اخذت في مدح سيد ذي ايادٍ فأشهر مناقبه وأظهر مناسبه وأبن معالمه وشرّف مقامه ، وتقاض المعاني واحذر المجهول منها . إياك ان تشين شعرك بالالفاظ الوزية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجسام واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل الا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم العون ، وجملة الحال ان تعتبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسنته العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان شاء الله تعالى .

زعم صاحب الاغاني ان ابا تمام شاعر مطبوع ولعل لديه دليلاً على ذلك لم نهتد اليه ، فابو تمام على ما نعلم لايجوز ان يعد مع المطبوعين كجرير وابي نواس وأشجع السلمي والبحتري وهبه مطبوعاً فان الحدود التي اخذ بها نفسه كفيلة بتعطيل قوة الطبع واخفاء أثره ، فانت اذا استعرضت شعره لم تجد اثر الطبع شائعاً فيه بل وجدت عناء الصانع المستقصي الذي يجهد نفسه كثيراً لينال غاية الاحسان . ولعل صاحب الاغاني يعني بالطبع المقدرة على اجادة الشعر سواء أتكلف الشاعر ام لم يتكلف .

كانت روايته الواسعة لأشعار العرب تحمله على إيثار الجزالة في اللفظ ، وكانت ثقفه بنفسه تحوله الامعان في فنون البديع والتوسع في الاستعارة على غير مناهج العرب حتى قيل ان شعره استعارة وبديع ، قال صاحب الوساطة :

« كانت الشعراء تجري على نهج من الاستعارة قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فاخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين بعده فوقفوا عند مراتبهم من الاحسان والاساءة والتقصير والاصابة » .

قالوا ومن رديء الاستعارة قوله :

« حتى انقته بكبياء السؤدد »

وقوله : كلوا الصبر مرًّا واشربوه فانكم أثرتم بغير الظلم والظلم بارك

نحن لاندرأ هذا وكثيراً مثله عن ابي تمام كما اننا نعترف بان له من الجيد ما لا يتعلق به غيره ، ولكننا نرى ان المركب الصعب الذي ركبه كثيراً ما مال به الى التعقيد والتوعير والغموض والخروج عن المألوف فلقد سمع أعرابي قصيدته التي أولها :

« طلل الجميع لقد عفوت حميدا »

فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها فإما ان يكون قائلها أشعر الناس واما أن يكون جميع الناس أشعر منه .

لا جدال في ان ابا تمام كان يؤثر الصنعة اللفظية وهو القائل :

« يروقك بيت الشعر حين يُصرَّع »

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن الذي جعله يغلو بها هو روح العصر السائدة إذ ذاك ، فقد كان الشعراء يتهافتون على الصنعة ولا تواتيهم كما تواتي ابا تمام ، جاء دعبل الشاعر الى الحسن بن وهب بعد موت أبي تمام فقال له رجل في المجلس انت الذي تطعن على من يقول :

وانجدتمُ من بعد إتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

فصاح دعبل أحسنَ والله وجعل يردد (فيا دمع انجدني على ساكني نجد) ثم قال : رحمه الله لو كان ترك لي شيئًا من شعره لقلت انه اشعر الناس . ودعبل هذا كان يثلب ابا تمام و يقول انه مسروق للشعر ، فانظر ما فعل به الجناس و كيف استلّ سخيمته واطلق لسانه بترديده ، ولو قال ابو تمام « فيادمع ساعدني على ساكني نجد» أتظن دعبلاً يصيح بغير استتمة ؟

* * *

واحسن شعر أبي تمام ما كان في الرثاء وله في المديح آيات ، سئل البحتري عنه فقال : مدّاحة نوّاحة . ومن مراثيه قوله يرثي ابنين صغيرين لعبد الله بن طاهر :

نجلان شاء الله ان لا يطلعا الا ارتداد الطرف حتى يأفلا
ان الفجيعة بالرياض نواضراً لأجلّ منها بالرياض ذوابلا
لهفي على تلك الشواهد فيهما لو أمهلت حتى تكون شمائلا
لغدا سكونهما حجىً وصباهما حلماً وتلك الاريحية نائلا
ان الهلال اذا رأيت نموّه أيقنت ان سيكون بدراً كاملا

وقصائده في هذا الباب مشهورة منها التي أولها :

اصمّ بك الناعي وان كان أسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

والتي مطلعها :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذرُ

وقال في اخ له قد حضر وفاته :

لله مقلته والموت يكسرها كأن اجفانه سكرى من الوسن
يردّ أنفاسه كرهاً وتعطفها يد المنية عطف الريح للغصن
ياهول ما ابصرت عيني وماسمعت أذني فلا ابصرت عيني ولا اذني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لم يبق من بدني جزء علمت به الا وقد حله جزء من الحزن

فانت تحس في رثائه نفساً تسيل اسى وتجيد التفجع ، ولقد يرثي من لا تعطفه عليه عواطف الحنان فيبكيك ويشجيك كالثكلى حين تندب وحيدها ، فتسائل نفسك اكان ابو تمام صادقاً في كل مراثيه وهل حزن حقيقة على كل من رثاه ؟ وانا أجيب كلاً فربما رثى من كانت حياته وموته عنده سيان ، ولكن ابا تمام من اولئك الناس الذين صحب الحزن نفوسهم وأشرب قلوبهم فقد كان يتخذ من موت الميت سبباً ليعرب عن احزان نفسه ، وينفث بعض ما يعتلج في صدره من البث ، ويصور منظراً من كآبته — لا على الميت فان ذلك كائن قبل موته — وقد يلتوي فهم ذلك الا على من بلاه او ابتلي به . وابة نفس تشعر بالشجى اكثر من نفس ابي تمام وهو القائل وقد سمع مغنية تغني بالفارسية :

ولم افهم معانيها ولكن ورت كبدي فلم أجهل شجاها

واما مديحه فليس ذلك المبتذل المعاد الذي اعتاد اكثر الشعراء ترديده فان له في هذا الباب معاني طريفة نادرة كقوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقوله : هو البحر من اي النواحي أتيته فلجته المعروف والجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو انه ثناها لقبض لم تطعه انامله

ولو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله

وقوله : لو انا اجماعنا في وصف سؤدده في الدين لم يختلف في الامة اثنان

ولم يقصر في الأدب والحكمة فكثير من شعره جرى مجرى الامثال كقوله :

اولى البرية حقاً ان تراعيه عند السرور الذي آساك في الحزن

ان الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقوله : وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد

فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقوله : ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدي الفتى في دهره وهو عالم

لو كانت الأرزاق تجري على الحجى هلكن اذن من جهلهن البهائم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومثل ذلك كثير في شعره لا محل لاستقصائه هنا .

اما غزله فهو اعجب ما في شعره وهو في نظرنا يقسم الى قسمين : قسم صدّر به قصائده وجعله توطئة لاغراضه كالمديح والفخر والوصف على طريقة العرب وهو غزل مصنوع متكلف وعر الألفاظ لاتهش له النفس ، وقسم لم يجعله توطئة لشيء بل هو غزل خالص ، ولم يرسل نفسه على سجيتها في كل شعره كما ارسلها في هذا القسم فلا تكاد تجد به اثراً للجزالة والمتانة بل هو سهل لين ولكنه والحق يقال لايلتئم باجزاء النفس كقوله :

زفراتٌ مقلقاتٌ اسعدتها العبرات
وعويل من غليل اضرمته الحسرات
ونحيبٌ ووجيبٌ ودموع مسبلات
وتباريح اشتياقٍ وهمومٌ طارقات
وفوادٌ مستهامٌ جنته الوجنات
وفتور من فتورٍ اورثته اللحظات
وحبيب صدَّ لما كثرت فيه الوشاة

وهو اذا اراد ان يستعطف حبيبه او يستلين قلبه او يناديه لم يجد وسيلة غير الانبياء فقد قال :

ياسميَّ الذي تبهل بدعو ربه مخلصاً له في قل أوحي
ومكنّى تتوق نفسي اليه بالرسول الكريم بعد المسيح
افصح اليوم ناظرا مستهام نطقا عن ضمير قلب قريح

وقال : ياسميّ النبي في سورة الجن ويا ثاني العزيز بمصر

وقال ايضاً : ياسميّ النبي حين يسمى والذي خص بالجمال وعما

واذا ترفع عن مثل هذا السفساف قال :

قسمت لي وقاسمني بسلطا نٍ من السحر مقلتا عبدوسِ
فالقسيم القسام عن لحظات منها يختلسن حب النفوس
فالذي قاسمت محظ اذا الليل تمطّى من الكرى المنفوس

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال علي بن عبد العزيز الجرجاني : « ولست أدري يشهد الله كيف تصور له ان يتغزل و ينسب وأي حبيب يستعطف بالفلسفة و كيف يتسع قلب عبدوس هذا وهو غلام غر وحدث مترف لاستخراج العويص واظهار المعمى » .

فاين ذاك النحط الذي تراه في قصيدته التي أولها :

« السيف اصدق انباءً من الكتب »

من هذه السخافة لدالة على ان اباتمام لم يعشق ولم يعرف الحب والذي قاله من الغزل لم يكن الباعث عليه الا قليل من المجون الجاف كقوله :

خمشتني بكفّها وأشارت بطرفها
فتأملت وجهها واتقتني بكفّها
ليت نصفي على الفرا — ش لحاف لنصفها
فأنال الذي أريد — على رغم انفها

وفي الاغاني قصة مجونية وقعت بين ابي تمام و بين الحسن بن وهب قال بها أبو تمام قصيدة اولها :

ابا عليٍّ لصرف الدهر والغير ، وللحوادث والايام والعبر

وشعره في الوصف والفخر والهجاء خير من شعره في الغزل .

ومن الكتب المؤلفة في شعر ابي تمام واخباره : كتاب الموازنة للآمدي و كتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه ابا تمام له ايضاً ، و كتاب تفسير شعر ابي تمام لمحمد بن احمد الازهري المتوفى سنة ٣٧٠ ، و كتاب اخبار ابي تمام والمختار من شعره لعلي بن محمد الشمشاطي من أدباء القرن الرابع ، و كتاب شرح شعر ابي تمام لأبي الريحان البيروني لم يتمه . ذكر ذلك ياقوت الرومي في معجم الأدباء عند ترجمة كلٍّ من أصحاب هذه الكتب ، ولم يطبع منها غير كتاب الموازنة . ولأبي العلاء المعري كتاب سماه ذكرى حبيب شرح به ديوان ابي تمام ، ولابي بكر الصولي كتاب في اخبار ابي تمام .

« للبحث صلة » : خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شعراء الشام في القرن الثالث

— ٣ —

ديك الجن

أبو محمد عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان ابن زيد بن تميم ، وديك الجن لقب غلب عليه [١] وجدُّه تميم من أهل مؤتة وهو أول من أسلم من اجداده على يد حبيب بن مسلمة الفهري أخذ محارباً ، وحبيب بن عبد الله ابن رغبان المذكور في هذا النسب كان كاتباً في أيام الخليفة المنصور وكان ينقلد الاعطاء واليه ينسب مسجد ابن رغبان بمدينة السلام وهو مولى حبيب بن مسلمة الفهري .

ولد ديك الجن في حمص سنة إحدى وستين ومائة وعاش بضعاً وسبعين سنة

---

(١) لم اجد من ذكر السبب في تلقيبه بديك الجن وقد زعم الدميري نقلاً عن القزويني ان « ديك الجن دويبة توجد في البساتين اذا أُلقيت في خمر عتيق وتركت في محارة ودفنت وسط الدار لا يرى فيها شيء من الارضة » ولعله لقب بديك الجن لكثرة خروجه الى البساتين ومعاقرته الخمرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتوفي سنة خمس وثلاثين ومائتين وكان شديد التشعب والعصبية على العرب يقول « مالنعرب علينا فضل جمعنا واياهم ولادة ابراهيم واسلمنا كما اسلموا ومن قتل منهم رجلاً منا قتل به ولم نجد الله فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين » وكان يتشيع تشيعاً حسناً وله مراثٍ كثيرة في الحسين كان بعضها مشهوراً عند الخاص والعام يناح به . قال صاحب الأغاني : كان خطيب اهل حمص يصلي على النبي على المنبر ثلاث مرات في خطبته وكان اهل حمص كلهم من اليمن لم يكن فيهم من مضر إلا ثلاثة ابيات فتعصبوا على الإمام وعزلوه فقال ديك الجن :

سمعوا الصلاة على النبي توالى فتنكّروا شيعاً وقالوا لا لا
ثم استمرّ على الصلاة إمامهم فتحزّبوا ورمى الرجال رجالا
يا آل حمص توقعوا من عارها خزياً يحل عليكمُ ووبالا
شانت وجوهكمو وجوهاً طالما رغمت معاطسها وساءت حالا

ولعله احد الشعوبيين الذين اتخذوا التشيع وسيلةً للنيل من العرب ، لا مذهباً يرجع الى عقيدة وإيمان ، اذ كيف نتفق سلامة إيمانه مع قوله :

أأترك لذة الصهباء نقداً لما وعدوه من لبنٍ وخمرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ حديث خرافةٍ يا أمّ عمرو

سكن ديك الجن حمص ولم يبرح نواحي الشام ولا وفد الى العراق ولا الى غيره منتجعاً بشعره ولا متصدياً لأحد الا ما كان من صحبته لاحمد وجعفر ابني علي الهاشميين وهي الى الصداقة أقرب منها الى الاستجداء ، وكان خليعاً ماجناً منعكفاً على القصف واللهو متلافاً لما ورث عن آبائه وا كتسب بشعره من احمد وعلي الهاشميين :

قال :

تمتع من الدنيا فانك فانٍ وإنك في ايدي الحوادث عانٍ
ولا تنظرن اليوم لهواً الى غدٍ ومن لغدٍ من حادثٍ بامانِ
فإني رأيت الدهر يُسرع بالفتى ويَنقله حالين تختلفانِ
فاما الذي يمضي فأحلام نائمٍ وأما الذي يبقى له فاماني

وكان يجتمع عنده اخدان وأهل الخلاعة وكان له ابن عم يكنى ابا الطيب يعظه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وينهاه عما يفعله ويحول بينه وبين ما يؤثر من لذاته وربما هجم عليه وعنده قوم من السفهاء والمُجّان وأهل الخلاعة فيستخفّ بهم وبه فلما كثر ذلك على ديك الجن قال:

يا عجباً من ابي الخبيث ومن ... سروجه في البكائر الدثره
يحمل رأساً تنبو المعاول عن ... صفحته والجلامد الوعره
كم طربات افسدتهن وكم ... صفوة عيشٍ غادرتها كدره
وكم إذا ما رأوك يا ملك المو — ت لهم أنا مل خصره
وكم لهم دعوة عليك وكم ... قذفة أمٍّ شنعاء مشتهره
كريمةٌ لؤمك استخف بها ... دنالها بالمثالب الاشره
سبحان من يمسك السماء على الار — ض وفيها اخلاقك العذره

وكان قد اشتهر بجارية نصرانية من أهل حمص هويها وتمادى به الامر حتى غلبت عليه وذهبت به فلما اشتهر بها دعاها الا الاسلام ليتزوج بها فاجابته وكان اسمها وردا ثم افترى ابو الطيب على هذه الجارية واذاع انها تهوى غلاماً لديك الجن واحتال عليه وأغراه بقتلها فقتلها وقال في ذلك:

ليتني لم أكن لعطفك نلتُ ... والى ذاك الوصال وصلتُ
فالذي مني اشتملت عليه ... ألعارٍ ما قد عليه اشتملت
قال ذو الجهل قد حلمت ولا ... أعلم أني حلمت حتى جهلت
لائم لي بجهله ولما ذا ... انا وحدي أحببت ثم قتلت
سوف آسى طول الحياة وابكي — ك على ما فعلتِ لا ما فعلتُ

وقال فيها ايضاً:

لك نفس مؤاتيه ... والمنايا معاديه
أيها القلب لاتعد ... لهوى البيض ثانيه
ليس برقٌ يكون أخـ — ـلب من برق غانيه
خنت سرّي ولم أخنـ — ـكِ فموتي علانيه

وقال ايضاً:

قل لمن كان وجهه كضياء الشـ — ـمس في حسنه وبدرٍ منيرِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كنت زين الأحياء إذ كنت فيهم ولقد صرت زين أهل القبور
بأبي انت في الحياة وفي المو — ت وتحت الثرى ويوم النشور
خنتني في المغيب والخون نكرٌ وذميمٌ في سالفات الدهور
فشفاني سيفي واسرع سيفي حز — التراقي قطعاً وحز النحور

ثم لما بلغه الخبر على حقيقته وصحته ندم ومكث شهراً لا يستفيق من البكاء ولا يطعمُ من الطعام الا ما يقيمُ رمقه وقال في ندمه على قتلها :

ياطلعةً طلع الحمام عليها وجنى لها ثمر الردى بيديها
رويت من دمها الثرى ولطالما روى الهوى شفتيّ من شفتيها
حكّمت سيفي في مجال خناقها ومدامعي تجري على خديها
فوحق نعليها وما وطئ الحصى شيءٌ اعزُّ عليَّ من نعليها
ما كان قتليها لاني لم اكن أبكي اذا سقط الغبار عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها وانفت من نظر الحسود اليها

لقد استنفدت هذه الواقعة شعره فنظم كثيراً من المراثي حتى صار من المعدودين في اجادة الرثاء قال صاحب العمدة : « ابو تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ومثله ديك الجن وهو اشهر في هذا من حبيب وله فيه طريق انفرد بها » .

* * *

وهو بعد شاعر مجيد يذهب مذهب ابي تمام والشابين في شعره كما قال صاحب الاغاني ، ولقد كان في زمانه شاعر الشام الى ان ظهر ابو تمام فلم يذكر معه الا مجازا ، وديك الجن اقدم منه وقد كان ابو تمام أخذ عنه امثلةً من شعره يحتذي عليها فهو استاذه ، وقول صاحب الأغاني انه يذهب مذهب ابي تمام يحمل على اشتهار ابي تمام بذلك المذهب بعد ان غلا فيه . قال عبد الله بن محمد بن عبد الملك الزبيدي : كنت جالساً عند ديك الجن فدخل عليه حدث فانشده شعراً فأخرج ديك الجن من تحت مصلاه درجاً كبيراً فيه كثيراً من شعره فسلمه اليه وقال يافتى تكسب بهذا واستعن به على قولك فلما خرج سألته عنه فقال هذا من اهل جاسم بذكر انه من طيئ يكنى ابا تمام واسمه حبيب ابن أوس وفيه أدب وذكاء وله قريحة وطبع ، وعمر ديك الجن الى ان مات ابو تمام ورثاه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قصر ديك الجن شعره على نفسه وهو الخليع المتهتك فتارة يصف الخمر و يقول :

بها غير معدول فداو خمارها ... وصل بحبالات الغبوق ابتكارها
ونل من عظيم الوزر كل عظيمة ... إذا ذكرت خاف الحفيظان نارها
وقم انت فاحثث كأسها غير صاغر ... ولا تسق الا خمرها وعقارها
فقام نكاد الكأس تحرق كفه ... من الشمس او من وجنتيه استعارها
ظللنا بأيدينا نتعتع روحها ... فتأخذ من اقدامنا الراح ثارها
وردة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده فادارها (١)

وتارة يتغزل بعشيقته ورد فيقول :

أنظر الى شمس القصور وبدرها ... والى خزاماها و بهجة زهرها
لم تبك عينك ابيضاً في اسود ... جمع الجمال كوجهها في شعرها
وردية الوجنات يخبر اسمها ... من ريقها من لا يحيط بخبرها
وتمايلت فضحكت من ارداقها ... عجباً ولكني بكيت لخصرها
تسقيك كأس مدامة من كفها ... وردية ومدامة من ثغرها

ولا ينسى ان يداعب غرانفاً من اهل حمص يقال له بكر بمقطوعات لا نرى روايتها لما بها من المجون ، وانما نروي منها ثلاثة ابيات قالها فيه وقد جلسا يوماً يتحدثان الى ان غاب القمر :

دع البدر فليغرب فانت لنا بدرُ ... اذا ما تجلى من محاسنك الفجرُ
اذا ما انقضى سحر الذين ببابل ... فطرفك لي سحر ور يقك لي خمر
ولو قيل لي قم فادع أحسن من ترى ... لصحت باعلى الصوت يابكر يابكر

(١) روي ان ابا نواس لما اجتاز بحمص قاصداً مصر سمع ديك الجن بوصوله فاستخفى منه خوفاً ان يظهر لابي نواس انه قاصر بالنسبة اليه ، فقصده ابو نواس في داره وهو بها فطرق الباب واستأذن عليه فقالت الجارية ليس هو ههنا ، فعرف مقصده فقال لها قولي له اخرج فقد فتنت اهل العراق بقولك :

مورّدة من كفّ ظبي كأنما ... تناولها من خده فادارها

فلما سمع ديك الجن ذلك خرج اليه واجتمع به واضافه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومن ملحه في الخلاعة قوله :

لما نظرت اليّ عن حدق المها ... وبسمت عن منفتح النوّار
وعقدت بين قضيب بانٍ اهيفٍ ... وكثيب رمل عقدة الزنار
عفرت خدي في الثرى لك ضائعاً ... وعزمت فيك على دخول النار

هكذا كانت حياته فاذا اعسر واستنزفت الخمرة ماله رحل من حمص الى احمد وجعفر الهاشميين في سلمية يستعين بهما على دهره ثم يعود الى شمشمته في حمص . ولما قتل عشيقته رثاها بتراث تصرف بها احسن تصرف كقوله :

اشفقت ان يرد الزمان بغدره ... او أبتلى بعد الوصال بهجره
قمر انا استخرجته من دجنه ... لبليتي وجلوته من خدره
قتلته وله عليّ كرامة ... ملأ الحشى وله الفؤاد بأسره
عهدي به ميتاً كأحسن نائمٍ ... والحزن يسفح عبرتي في نحره
لو كان يدري الميت ماذا بعده ... بالحي منه بكى له في قبره
غصص تكاد تفيض منها نفسه ... وتكاد تخرج قلبه من صدره

وقوله : بأبي نبذتك بالعراء المقفر ... وسترت وجهك بالتراب الاعفر
بأبي بذلتك بعد صون للبلى ... ورجعت عنك صبرت أم لم أصبر
لو كنت اقدر أن أرى أثر البلى ... لتركت وجهك ضاحياً لم يقبر

وقوله : أما آن للطيف أن يأتيا ... وأن يطرق الوطن الدانيا
وإني لاحسب ريب الزما ـ ن يتركني جسداً باليا
سأشكر ذاك لا ناسياً ... جميل الصفاء ولا قاليا
وقد كنت أشكره ضاحكاً ... فقد صرت أشكره باكيا

وقوله : جاءت تزور فراشي بعدما قبرت ... فظلت ألثم نحراً زانه الجيدُ
وقلت قرة عيني قد بعثت لنا ... فكيف ذا وطريق القبر مسدود
قالت هناك عظامي فيه مودعة ... تعبث فيها بنات الارض والدود
وهذه الروح قد جاءتك زائرةً ... هذي زيارة من في القبر ملحود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذا شعر علم الله يستعبر له السامع . وله قصيدة يرثي بها جعفر بن علي الهاشمي وهي جيدة منها قوله :

فيا قبره جد كل قبرٍ بجوده ... فنيك سماءٌ ثرةٌ وسحائبُ
فانك لو تدري بنافيك من علا ... علوت وباتت في ذراك الكواكب
أخاً كنت أبكيه دماً وهو نائم ... حذاراً وتعمى مقلتي وهو غائب
فمات ولا صبري على الاجر واقف ... ولا أنا في عمر الى الله راغب
أأسعى لاحظى فيك بالاجر انه ... لسعيٌ اذن مني لدى الله خائب
وما الاثم الا الصبر عنك وانما ... عواقب حمدٍ ان تذم العواقب
يقولون مقدار على المرء واجب ... فقلت وإعوال على المرء واجب
هو القلب لما حمَّ يوم ابن أمه ... وهي جانب منه وأسقم جانب
فوالله اخلاصاً من القول صادقاً ... والا فحبي آل احمد كاذب
لو ان دمي كانت شفاؤك اودمي؟ ... دم القلب حتى يقضب القلب قاضب
لسلمت تسليم الرضا وتخذتها ... يداً للردى ما حج لله راكب
فتى كان مثل السيف من حيث جئته ... لنائبةٍ نابتك فهو مضارب
بكاك أخٌ لم تحوه بقرابةٍ ... بلى ان اخوان الصفاء اقارب
وأظلمت الدنيا التي كنت جارها ... كأنك للدنيا أخٍ ومناسب

فذق هذا الكلام من حيث شئت هل تجد فيه الا حلاوة ، وأعمل فكرك هل تجد الا معنى شريفاً ولفظاً شريفاً وحسن تصرف بهما .

هذه نبذة من شعره في الخمر والغزل والرثاء ولم نقف على شيء في المديح وانما روى له صاحب الاغاني قصيدة يعزّي بها جعفر بن علي سلك بها طريق الجاهليين منها :

نغفل والايام لا تغفل ... ولا لنا من زمنٍ موئلُ
والدهر لا يسلم من صرفه ... أعصم في القنة مستوعل
ولا حباب صلنان السرى ... أرقم لا يعرف ما تجهل
ولا عقنباة السلامى لها ... في كل أفق علق مهمل
فتجتاء في الجو خدارية ... كالغيم والغيم لها مثقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آمن من كان لصرف الردى أنزلها من جوها منزل

وهي كما ترى عبارة عن رأي بدوي جاف لا يهتدي الى عزاء عن النجائع الا ان الدهر لا يسلم من صرفه الأعصم والأرنة والفتخاء وفي ذلك دليل على ان الشاعر يكبو فيما لا يوافق هواه ، وأنى له — وهو الخليع الماجن — ان يقيم نفسه مقام من يعظ ويخفف المصايب ، لذلك فشعر ديك الجن فيما يوافق هواه جزل منسجم وصنعته اللفظية أخف على النفس من صنعة ابي تمام لانها مع حسنها لا تجد للكلفة اثراً ظاهراً عليها فقد كان مقتصداً فيها ، وتشبيهاته واستعاراته حسنة سائغة كقوله :

لا ومكان الصليب في النحر منـ ـك ومجرى الزنار في الخصر
والخال في الخد اذ أشبهه وردة مسك على ثرى نبر
وحاجب مدّ خطه قلم الحسـ ـن بحبر البهاء لا الحبر
وأقحوان بفيك منتظم على شبيه من رائق الخمر

ومعانيه حسنة لاسيما ما كان في الرثاء فأكثرها شريف نادر .

البحتري

ابو عبادة الوليد بن عبيد البحتري ينتسب الى بحتر بن عتود وهو بطن من طيئ والبحتري يفتخر بهذا النسب ويقول :

ذهبت طيئ بسابقة المجـ ـد على العالمين بأساً وجودا
نحن أبناء يعرب اعرب النا ـس لسانا وأنضر الناس عودا

ولد بمنبج سنة ست ومائتين وبها نشأ وتخرج وتأدب ويدلّ على ان بيته قديم في منبج قوله :

جدي الذي رفع الأذان بمنبج وأقام فيها قبلة الصلوات
وأبي ابو حيان قائد طيئ للروم تحت لواءه المنصات
ووليّ فتح الجسر اذ أغرى به عمروٌ وفاعل تلكم الفعلات

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وأول شعر قاله في غلام اسمه شقران اذ انفق للبحتري سفر فخرج فيه فأطال الغيبة ثم عاد وقد اتحى شقران فقال :

نبتت لحية شقرا — ن شقيق الروح بعدي
حلقت كيف أنه قبل ان ينجز وعدي

ولم ينبه ذكره الا بعد اتصاله بابي تمام الطائي وخروجه الى العراق حيث مدح جماعة من الخلفاء اولهم المتوكل وخلقاً كثيراً من الاكابر والرؤساء ، قال صالح بن الاصبغ النوخي المنبجي : رأيت البحتري عندنا قبل ان يخرج الى العراق يجتاز بنا في الجامع يمدح اصحاب البصل والباذنجان وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه .

قال البحتري اول مارأيت ابا تمام اني دخلت على ابي سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتي :

أأفاق صب من هوى فأفيقا ام خان عهداً ام اطاع شفيقا

فسرّ بها ابو سعيد وقال احسنت والله يافتى واجدت ، قال وكان في مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده نكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل عليّ ثم قال يافتى اما تستحيي مني هذا شعر لي تنتحله وتنشده بحضرتي ، فقال له ابو سعيد احقاً تقول ؟ ، قال نعم وانما علقه مني فسبقني به اليك وزادفيه ، ثم اندفع وانشد اكثر هذه القصيدة حتى شككني علم الله في نفسي وبقيت متحيراً ، فأقبل عليّ ابو سعيد فقال يافتى قد كان في قرابتك لنا وودك لنا مابغنيك عن هذا ، فجعلت احلف له بكل محرّجة من الايمان ان الشعر لي ما سبقني اليه احد ولا سمعته منه ولا انتحلته فلم ينفع ذلك شيئاً ، واطرق ابو سعيد وفظع بي حتى تمنيت اني سخت في الارض فقمت منكسر البال اجرُّ رجليّ فخرجت ، فما هو الا ان بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردوني ، فاقبل عليّ الرجل فقال : الشعر لك يابنيّ والله مافلته قط ولا سمعته الا منك ولكني ظننت انك تهاونت موضعي فاقدمت على الانشاد بحضرتي من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتي وتكاثرني حتى عرّفني الامير نسبك ومرضعك ولوددت ان لاتلد ابداً طائية الا مثلك ، وجعل ابو سعيد يضحك ودعاني ابو تمام وضمني اليه وعانقني واقبل يقرظني ولزمته بعد ذلك واخذت عنه واقتديت به .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وروي عن البحتري انه قال : كان اوّل امري في الشعر ونباهتي اني صرت الى ابي تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعري وكان الشعراء يعرضون عليه اشعارهم فاقبل عليّ وترك سائر من حضر فلما انفرقوا قال لي انت اشعر من انشدني ، فكيف بالله حالك؟ فشكوت خلة ، فكتب الى اهل معرة النعمان وشهد لي بالحذق بالشعر وشفع لي اليهم وقال امتدحهم ، فصرت اليهم فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة آلاف درهم فكان اول مال اصبته . قال صاحب الاغاني وكانت نسخة كتابه : يصل كتابي هذا على يد الوليد بن عبيد الطائي وهو على بذاذته شاعر فاكرموه .

عظم مقام البحتري بعد ان رحل الى العراق وادناه المتوكل وقد رافقه في سفره الى دمشق قال في ذلك :

قد رحلنا عن العراق وعن قطبها النكد
حبذا العيش في دمشق اذا ليلها برد
سفرٌ جددت لنا اللهو ايامه الجدد
عزم الله للخليفة فيه على الرشد

واتصل ايضاً بالفتح بن خاقان وزير المتوكل ومدح بعد المتوكل جماعة من الخلفاء منهم المنتصر والمستعين والمهتدي والمعتز وكثيراً من الوزراء والرؤساء وفاض كسبه من الشعر حتى كان يركب في موكب من عبيده وفي نباهة ذكره يقول :

ان أبق او اهلك فقد نلت التي ملأت صدور اقاربي وعداتي
وغنيت ندمان الخلائف نابهاً ذكري وناعمةً بهم نشواتي
وشفعت في الامر الجليل اليهم بعد الجليل فأنجحوا طلباتي
وصنعت في العرب الصنائع عندهم من رفد طلاّب وفك عناة

عاد الى الشام في آخر عمره وتوفي بمنبج بداء السكتة سنة اربع وثمانين ومائتين وترك ثروة طائلة ظلت في اولاده مدة طويلة وربما كانت من الاسباب التي جعلتهم من الرؤساء ، فمن احفاده ابو عبادة بن يحيى بن الوليد واخوه عبيد الله كانا رئيسين في زمانهما ومدحهما المتنبي ، وذكر ياقوت في معجم البلدان ان للبحتري في منبج املاكاً وذكر في المشترك ايضاً ان قرية على باب منبج ذات بساتين هي وقف على ولده .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كان البحتري يطمح لجمع المال ولا يرضى بالقعود على النافقة وفي ذلك يقول :

ليس الزمان بمعتبي فذر بني ... ارمي تجهم خطبه بجبيني
وخد القلاص يردني لك بالغنى ... في بعض ذا التطواف او يردي
والرزق للبقظ المشيع رأيه ... بالعزم لا للعاجز المأفون

ويقول ايضاً واحب آفاق البلاد الى الفتى ... ارض ينال بها كريم المطلب
ومثله قوله : رأيت القعود على الاقتصاد ... قنوعاً به ذلةً سيف العباد
وعز بذي ادب ان يضيق ... بعيشته وسع هذي البلاد
اذا ما الاديب ارتضى بالخمول ... فما الحظ في الادب المستفاد

وكان لا يقنع بالقليل من المال وفي ذلك يقول لاحد ممدوحيه :

لا تقلل اذا هممت بجدوى ... ان شر الاعداد عندي القليل

ولقد رأيت ان اول ما اشتكى الى ابي تمام الخلة وذلك دليل على كرهه للفقر وحبه للمال ، ولقد ساقه حب المال الى البخل بل الشح بكل شيء ولازمه هذا الخلق طول عمره بالرغم من غناه واثرائه ، وله في جمع المال والضن به نوادر غريبة ، منها انه كان له غلام رومي اسمه نسيم قد جعله بابا من ابواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد ان يصيره الى ملك بعض اهل المروآت ومن ينفق عنده الادب فاذا حصل في ملكه شبب به وتشوقه ومدح مولاه حتى يهبه له كقوله من قصيدة :

دعا عبرتي تجري على الجور والقصد ... اظن نسيماً قارف الهم من بعدي
خلا ناظري من طيفه بعد شخصه ... فيا عجباً للدهر فقد على فقد

فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفي الناس امره .

ومما يروى عنه في البخل أنه كان له اخ وغلام معه في داره فكان يضنيهما جوعاً فاذا بلغ منهما الجوع اتياه يبكيان فيرمي اليهما بثمن اقواتهما ويقول : كلا اجاع الله اكبادكما واعرى اجلادكما وأطال اجتهادكما .

وقال أحدهم : دخلت على البحتري يوماً فاحتبسني عنده ودعا بطعام له ودعاني فامتنعت من أكله وكان عنده شيخ شامي لا اعرفه فدعاه الى الطعام فتقدم وأكل بعنف فغاظه ذلك ، ثم إنه التفت اليّ وقال لي اتعرف هذا الشيخ قلت لا قال هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الشيخ من بني الهجيم الذين يقول فيهم الشاعر :

وبنو الهجيم قبيلة ملعونة حُصُّ اللحى متشابهو الالوان
لو يسمعون باُكلة او شربة بعمان اصبح جمعهم بعمان

قال فجعل الشيخ يشتمه ونحن نضحك .

ولم يسلم البحتري من مجاراة ميوله وأهوائه شأن اكثر الشعراء فقد كان يعاقر الخمرة ويميل الى الدعابة وتميل به الصبوة .

روي انه استهدى محمد بن علي القمي نبيذاً فبعث اليه نبيذاً مع غلام له امرد فجسه البحتري ففضب الغلام غضباً شديداً دلّ البحتري على انه سيخبر مولاه بما جرى فكتب اليه :

ابا جعفر كان تجميشنا غلامك إحدى الهنات الدنية
بعثت الينا بشمس المدام تضيء لنا مع شمس البرية
فليت الهدية كان الرسول وليت الرسول الينا الهدية

فبعث اليه محمد بن علي الغلام هدية .

ولقد احب علوة بنت زرعة الحلبية واكثر من التشبيب بها

كقوله : هل دين علوة يستطاع فيقتضى او ظلم علوة يستفيق فيقصر
وقوله : عرّج على حلب فحي محلةً مأنوسة فيها لعلوة منزلُ
وقوله : نأت دار علوة بعد قربٍ فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وقوله : وما انس لا انس عهد الشبا — ب وعلوة اذ عيرتني الكبر
وقوله : عهدٌ لعلوة باللوى قد اشكلا ما كان احسن مبتداه واجملا
وقوله : أرى خلقاً حبي لعلوة دائماً اذا لم يدم بالعاشقين التخلقُ
وقوله : فاقلاً في علوة اللوم إني زائد في الغرام ان لم تقلا
وقوله : أحبب الينا بدار علوة من بطياس والمشرفات من اكمه
وقوله : اتخشى زيال علوة او هجـ ـرانها والحب خاش جنانه
وقوله : لعلوة في هذا الفؤاد محلة تجافتُ عن سعدى بها وسعادِ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقوله : طيف لعلوة ما ينفك يأتيني يصبو إليّ على بعد و يصبيني
وقوله : وقد وردت اهواؤهن فؤاده ولا حبّ الا حب علوة فارطه

وكان في اخلاقه الحنين الى وطنه والمحافظة على وداد احبابه فقد اكثر من ذكر ربوع صباه وصبوته والتشوق اليها .

كقوله : وقد حاولت ان تجد المطايا الى حيّ على حلب حلول

وقوله :

كم نظرة لي حيال الشام لو وصلت روت غليل فؤاد منك ملتاح
وقوله : حنت ركابي بالعراق وشانها في ناجر برد الشآم ورنقه
وقوله : ولي بين القصور الى قوبق أليف أصطفيه و يصطفيني

وقوله :

أشيم سحاب الغرب مل ركن دوشن او المنكفا من بانقوسا مهابطه

وقوله :

يابرق اسفر عن قوبق فطارتي حلب فاعلى القصر من بطياس
وقوله : ياليلتي بالقصر من بطياس ومعرّسي بالقصر بل اعراسي
وقوله : شاقني بالعراق برقٌ كليلُ ودعاني للشام شوقٌ دخيلُ

وقوله :

واشترائي العراق خطة غبن بعد بيعي الشآم بيعة وكس

كما اكثر من ذكر المتوكل والفتح بن خاقان والتوجع عليهما بعد قتلهما ولم يمنعه من ذلك صولة الخليفة المنتصر الذي كان له يد في قتلهما .

قال يرثي المتوكل و يعرّض بابنه المنتصر الذي قتله :

حرام عليّ الراح بعدك او أرى دمًا بدمه يجري على الارض مأثرُه
وهل أرتجي ان يطلب الدم واترٌ يدَ الدهر والموتور بالدم واتره
أكان وليُّ العهد أضمر غدره فمن عجب ان وُليَ العهد غادره

وكان يقول : من تمام الوفاء ان تفضل المراثي المدائح .

ومن غريب ما يروى عنه انه كان من اوسخ خلق الله ثوباً وآلةً ، ومن اقبح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الناس إنشاداً يتشادق و يتزاور في مشيته مرة جانباً ومرة القهقرى و يهز رأسه مرة ومنكبه أخرى و يشير بكمه و يقف عند كل بيت و يقول : احسنت والله ثم يقبل على المستمعين و يقول مالكم لاتقولون احسنت ، هذا والله مما لايحسن احد ان يقول مثله .

وديوان شعره جمعه ابو بكر الصولي ورتبه على حروف المعجم وكان لعهده لم يزل غير مرتب ، وجمعه ايضاً علي بن حمزه الاصبهاني ولم يرتبه على الحروف بل على الانواع وقد شرح ديوانه ابو العلاء المعري وسماه عبث الوليد ، وشرحه ايضاً محمد بن اسحق الزوزني المتوفى سنة (٤٦٣) قال ياقوت الرومي : انه شرح ملئ علما وحشى فهما ، ولعلي بن حمزة البيهقي المتوفى سنة (٥٦٥) شرح شعر البحتري وابي تمام ، وللحسن بن بشر الآمدي كتاب معاني شعر البحتري .

وللبحتري غير ديوان شعره كتاب سماه الحماسة على مثال حماسة ابي تمام الطائي وهو كتاب جليل جمع فيه طائفة كبيرة مما اختاره من الشعر ورتبه ترتيباً حسناً ، وله ايضاً كتاب معاني الشعر .

ومن الكتب التي أُلفت في البحتري : كتاب الموازنة بينه و بين ابي تمام الطائي للآمدي ، وكتاب سرقات البحتري من ابي تمام لاحمد بن ابي طاهر المتوفى سنة (٢٨٠) ، وكتاب سرقات البحتري من ابي تمام لبشر بن يحيى النصيبي .

هذا ما أردنا روايته من اخبار البحتري وآثاره وقد آن لنا بعد ذلك ان نتكلم عن شعره .

* * *

لااعلم اذا كان في شعراء العرب من هو اطبع على قول الشعر من البحتري ، فهو الشاعر حقاً بحسه وخواجله ووجداناته واسلوبه والفاظه وتراكيبه وقوافيه ، سئل ابو العلاء المعري : من اشعر الثلاثة ابو تمام ام البحتري ام المتنبي ؟ فقال : ابو تمام والمتنبي حكيمان ، واما الشاعر البحتري ، و يروى هذا القول عن المتنبي نفسه .

لاندعي ان له صنعة ابي تمام ولا معاني ابن الرومي ولا امثال المتنبي ولا تشبيهات ابن المعتز ولا فلسفة المعري ، كلا بل هو نفسه لايدعي ذلك بعد ان قال :

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يلغى عن صدقه كذبه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم يكن ذوالقروح يلهج بالمـ ـنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي إشارته وليست بالهذر طولت خطبه

فانظر كيف يرى ان الشعر لمح للاشياء ببصر نافذ ، واشارة عنها ببيان بالغ ، لانقديم المقدمات ، واستنتاج النتائج ، وتأصيل الاصول ، وتفريع الفروع ، فقد يكون الشاعر شاعراً وهو غير حكيم او فيلسوف .

يقولون ان البحتري لم يأت بمعان مخترعة ولا بأساليب مبتكرة ، وكأن الشعر لايكون الا بذلك ، ولقد جل خطبه ان لم يكن الا كذلك ، معان مخترعة وأساليب مبتكرة ، امعن ايها الشاعر بها ولو اتيت بما لايتصوره انسان ولا تفهمه عنك الجان .

ليس البحتري في شيء من هذا وانما ينظر الى الاشياء بنظر الشاعر و يتأثر بها تأثر الشاعر ثم يترجم عنها ترجمة الشاعر ولا يحمل نفسه على ابراز معانيه كألاعيب الصبيان الممسوخة المموّهة بشتى الالوان من بعد في الاستعارة واغراب في التشبيه واغراق في البديع واحالة في المعنى كي يقال معان مخترعة واساليب مبتكرة .

ان كان الشعر بنفوذ النظر وقوة الملاحظة وتوقد الفكرة وصدق الحس وروعة البيان فالبحتري هو الشاعر حقاً .

خذ اي قصيدة شئت من قصائده في الوصف وانظر كيف يصور لك المشاهد صورة ناطقة ، يصور لك المـاء ويسمعك خريره ، والطير ويسمعك هديله ، والشجر و يريك تمايل اغصانه ، والقصور بما فيها من مرأى ومسمع ، والاطلال وعزيف الارواح بها ، وموكب الخليفة وما به من حركة وسكون وروعة وجلالة ، واذا اتى على وصف الطيف وكثيراً مايأتي مثّل لك حلو الاحلام واحاسن المنى بالفاظ عذبة رشيقة .

وماذا عساني ان آتي بدليـل على ما اقول وديوان شعره اشهر من ان ينوه به او يدل عليه ، فاقرأ اذا شئت قصائده في وصف ايوان كسرى ، والبركة وخروج المتوكل يوم عيد الفطر ، ووصف قصور الخلفاء كالجعفري والفرد والصبيح والمليح والكامل ، ووصف الاسد والذئب والفرس .

قال ابن المعتز : لو لم يكن للبحتري الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى — فليس للعرب سينية مثلها — وقصيدته في وصف البركة ، لكان اشعر الناس في زمانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واليك بعض ابيات من تلك القصيدة في الايوان :

وهو ينبيك عن عجائب قوم لايشاب البيان فيهم بلبس
فاذا مارأيت صورة انطا ـ كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا مواثل وانوشر ـ وان يزجي الصفوف تحت الدرفس
في اخضرار من اللباس على اصـ ـفر يختال في صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنان بترس
تصف العين انهم جدّ احيا ـ ء لهم بينهم اشارة خرس
يغتلي فيهم ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس

ومنها :

عكست حظه الليالي وبات الـ ـمشتري فيه وهو كوكب نحس
فهو يبدي تجلداً وعليه كلكل من كلاكل الدهر مرسي
لم يعبه ان يزّ من بسط الديـ باج واستل من ستور الدمقس
مشمخرٌّ تعلو له شرفاتٌ رفعت في رؤوس رضوى وقدس
لابسات من البياض فما تبـ ـصر منها الا فلائل برس
ليس يدري اصنع إنس لجنٍ سكنوه أم صنع جن لانس
غير اني اراه يشهد ان لم يك بانيه في الملوك بنكس
فكأني ارى المراتب والقو ـم اذا ما بلغت آخر حسي
وكأن الوفود ضاحين حسري من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقاصيـ ـر يرجعن بين حوٍّ ولمس
وكأن اللقاء اول من امـ ـس ووشك الفراق اول امس
عُمرت للسرور دهراً فصارت للتعزي رباعهم والتأسي
فلها ان أعينها بدموع موقفات على الصبابة حبس
ذاك عندي وليست الدار داري بافتراب منها ولا الجنس جنسي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال يصف الربيع :

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً ... من الحسن حتى كاد ان يتكلما
وقد نبه النوروز في غلس الدجى ... اوائل ورد كنَّ بالامس نوَّما
يفتقها برد الندى فكأنه ... يبثُّ حديثاً كان قبل مكتما
ومن شجر كان الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشياً منمنما
احلَّ فابدى للعيون بشاشةً ... وكان قذىً للعين اذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجيءُ بانفاس الاحبة نُعَّما
فما يحبس الراح التي انت خلها ... وما يمنع الاوتار ان تترنما

أما نسيبه فنسيب عاشق غزل يعرف كيف يبعث الرحمة والعطف في قلب حبيبه حينما يصف ما يكابده من التشوق بطريقة تشجي السامع وتثير به نشوة الطرب وتترجم عن قلب كل محب كقوله :

عذيري فيك من لاحٍ اذا ما ... شكوت الحب حرقني ملاما
فلا وأبيك ما ضيعت حلماً ... ولا فارقت في حبك ذاما
ألام على هواكِ وليس عدلاً ... اذا أحببتُ مثلك ان أُلاما
لقد حرّمت من وصلي حلالاً ... وقد حللت من هجري حراما
أعيدي فيَّ نظرة مستثيب ... توخى الاجر او كره الاثاما
ترى كبداً محرقة وعينا ... مؤرقة وقلباً مستهاما
تناءت دار علوة بعد قربٍ ... فهل ركبٌ يبلغها السلاما
وجدد طيفها عتباً علينا ... فما يعتادنا الا لماما

وربت ليلة قد بتُّ أسقى ... بعينيها وكفيها المداما
قطعنا الليل لثماً واعتناقاً ... وافنيناه ضماً والتزاما
وقد علمت باني لم اضيع ... لها عهداً ولم اخفر ذماما
لئن اضحت محلتنا عراقا ... مشرقة وحلتها شآما
فلم أُحدث لها الا وداداً ... ولم ازدد بها إلا غراما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقوله :

أعيذك ان تثنى بشكوى صبابةٍ وإن اكسبتنا منك عطفاً على الصبّ
ويحزنني ان تعرفي الحب بالجوى ولو نفعتنا منكِ معرفة الحب

وله في ذكر الطيف الجيد البارع كقوله :

يعزّ على الواشين — لو يعلمونها — ليالٍ لنا نزدار فيها ونلتقي
فكم غلةٍ للشوق اطفأت حرها بطيفٍ متى يطرق دجى الليل يطرق
اضمّ عليه جفن عيني تعلقاً به عند اجلاء النعاس المرنق

وقوله :

اذا ما الكرى اهدى اليّ خياله شفى قربه التبريح او نقع الصدى
إذا انتزعته من يديّ انتباهةٌ عددت حبيباً راح مني او غدا
ولم أر مثلينا ولا مثل شأننا نعذّب ايقاظاً وننعم هجّدا

ومن شعره الجيد البالغ قوله :

وفرسان هيجاء تجيش صدورها باحقادها حتى تضيق دروعها
تقتل من وتر اعز نفوسها عليها بأيدٍ ما تكاد تطيعها
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعها
شواجر ارماح تقطع بينهم شواجر ارحام تلوم قطوعها

وله من السهل المطمع كثير كقوله :

أيها العاتب الذي ليس يرضى ثم هنيئاً فلست اطمع غمضا
ان لي من هواك وجداً قداستهـ ـلك نومي ومضجعاً قد اقضّا
فجنوني في عبرةٍ ليس ترقا وفؤادي في لوعة ما تقضى
يا قليل الإنصاف كم أقتضي عنـ ـدك وعداً انجازه ليس يقضى
فاجزني بالوصل ان كان اجراً واثبني بالحب ان كان قرضا
بأبي شادنٌ تعلق قلبي بجفون فواتر اللحظ مرضى
غرّني حبه فاصبحت أبدي منه بعضاً واكتم الناس بعضا
لست انساه بادياً من قريبٍ يتثنى تثني الغصن غضّا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واعتذاري اليه حتى تجافى لي عن بعض ما اتيت واغضى
واعتلاقي نفاح خديه تقبيـ ـلاً ولثماً طوراً وشماً وعضا

وطريقته في شعره طريقة المطبوعين لا يعتني كثيراً بالابتداآت ولا يلتفت الى التخلص . فقد ترى في قصائده مطلعاً غير بالغ في الجودة اتى به عفواً وكما تماديت في قراءة القصيدة وجدت الكلام يجود ، وبينا تراه ينسب بعلوة اذا هو يثب الى الغرض الذي قصد له القصيدة من مدح او وصف او فخر وثباً واقتضاباً كقوله :

اني وان جانبت بعض بطالتي وتوهم الواشون اني مقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى ويروقني ورد الخدود الاحمر
الله مكّن للخليفة جعفر ملكاً يحسنه الخليفة جعفر

وكذلك اكثر شعره وقلما تجد به ما يسمونه التخلص .

وأسلوبه عربي خالص على تنوع الاغراض التي قصدها في شعره ، والفاظه متزاوجة : الكلمة واختها مع الجزالة والعذوبة كقوله :

تطيب بمسراها البلاد اذا سرت فينعم رياها ويصفو نسيمها

وقوله : ضاق صدري بما أُجـ ـنّ وقلبي بما اجد

وقوله : لقد اصطفى رب السما ـ ء له الخلائق والشيم

وهو مع طبعه الفائق تجد في شعره رائحة الصنعة التي أخذها عن ابي تمام كقوله وفيه التجنيس :

صدق الغراب لقد رأيت حمولهم بالأمس تغرب عن جوانب غُرَّب

وقوله وفيه المطابقة :

ان ايامه من البيض بيضٌ ما رأين المفارق السود سودا

وقوله وفيه التوشيح :

فليس الذي حللته بمحلل وليس الذي حرمته بحرام

وقوله وفيه المؤتلف والمختلف :

بحلٍّ وعقدٍ وجزمٍ وفصلٍ ونبلٍ وبذلٍ وبأسٍ وجودِ

الى غير ذلك من الانواع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان يلقي من كل قصيدة جميع مايرتات به تخرج شعره مهذباً ، قال عبد القاهر الجرجاني : « انك لاتكاد تجد شاعراً يعطيك في المعاني الدقيقة من التسهيل والتقريب ورد البعيد الغريب الى المألوف القريب ، مايعطي البحتري ويبلغ في هذا مبلغه ، فانه ليروض لك المهر الأرن رياضة الماهر حتى يعنق من تحتك اعنـاق القارح المذلل ، وينزع من شماس الصعب الجامح حتى يلين لك لين المنقاد المطيع » .

واذا أردت ان تعلم مبلغ شاعرية البحتري فاعمد الى نثر شعره تجد انك لاتحتاج الى التقديم والتأخير والنقص والزيادة كقوله :

نطلب الاكثر في الدنيا وقد نبلغ الحاجة فيها بالاقل

وقوله : اطل جفوة الدنيا وتهوين شأنها فما الغافل المغرور فيها بعاقل

يرجي الخلود معشر ضلّ سعيهم ودون الذي يبغون غول الغوائل

اذا ما حريز القوم بات وماله من الله واق فهو بادي المقاتل

فاذا ما نثرت ذلك لم تزد في الفاظه شيئاً .

وهو مع حسن تصرفه في ضروب الشعر كان مقصراً في الهجاء ، وذكروا ان السبب في قلة بضاعته في هذا الفن انه لما حضره الموت دعا بابنه ابي الغوث وقال له : اجمع كل شيء قلته في الهجاء فجمع فأمره باحراقه ثم قال له : يابني هذا شيء قلته في وقت فشفيت به غيظي وكافئت به قبيحاً فعل بي وقد انقضى ارب في ذلك وان بقي روي وللناس اعقاب يورثونهم العداوة والمودة واخشى ان يعود عليك من هذا شيء في نفسك او معاشك لافائدة لك ولا لي فيه .

وقد بقي من هجائه قصائد وأبيات لاتشاكل طبعه ولا تليق بمذهبه وتنبيء بركاكتها وغثاثة الفاظها كما قال صاحب الاغاني ، وما يعرف له هجاء جيـد إلا قصيدتين احداهما في ابن ابي قماش والثانية في يعقوب بن ابي الفرج .

وممن أغرى بهجاء البحتري ابن الرومي فقد قال فيه :

والفتى البحتري يسرق مافا ـ ـ ل ابن أوس في المدح والتشبيب

كل بيت له يجود معناه ـ فمعناه لابن أوس حبيب

وقال ايضاً :

فيحاً لاشياء يأتي البحتري بها من شعره الغث بعد الكد والتعب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد يجيء بخلط فالنحاس له ... والملاوائل مافيه من الذهب
ما ان تزال تراه لابساً حللاً ... اسلاب قوم مضوا في سالف الحقب
يعيب شعري وما زالت بصيرته ... عمياء عن كل نور ساطع اللهب
الحظ اعمى ولولا ذاك لم تره ... للبحتري بلا عقل ولا حسب

قال صاحب العمدة : وهجا ابن الرومي البحتري — وابن الرومي من علت — فاهدى اليه تحت متاع وكيس دراهم وكتب اليه لبر به ان الهدية ليست نقية منه ولكن رقة عليه وانه لم يحمله على ما فعل الا النقر والحسد المفرط :

شاعر لا اهابه ... نبحتني كلابه
ان من لا أعزه ... لعزيز جوابه

وهجاه ابو العنبس الصيمري بحضرة المتوكل بقصيدة بذيئة الالفاظ سخيفة عارض بها قصيدة البحتري التي يمدح بها المتوكل والتي اولها :

عن اي ثغر تبتسم ... وباي طرف تحتكم

فغضب البحتري وخرج وقال لبعض اصحابه قد ضاع العلم وهلك الأدب ، واراد ان يعود الى منبج بغير اذن لولا ان استبقاه الفتح بن خاقان ، ولكنه لم يجب ابا العنبس الصيمري اطراحاً واحتقاراً له .

* * *

اما اخذه بعض معاني ابي تمام فذلك ما لا يمكن دفعه ولولاه لما نعي عليه في شعره عيب واعتذر عنه الآمدي بقوله : « ان من ادركته من اهل العلم بالشعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوئ الشعراء وخاصة المتأخرين اذ كان هذا باباً ما نعرى منه متقدم ولا متأخر » .

واستقصاء ما اخذه من ابي تمام لا يمكن في هذا البحث فلنذكر قليلاً منه :

قال ابو تمام :

تكاد معانيه تهش عراصها ... فتركب من شوق الى كل راكب

فقال البحتري :

ولو ان مشتاقاً تكلف غير ما ... في وسعه لمشى اليك المنبر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال ابو تمام :

مازال وسواسي لعقلي خادعاً حتى رجا مطراً وليس سحابُ

فقال البحتري :

وتجيبُ ان الغيوم يرجيهنّ من لا يرى مكان الغيوم

وقال ابو تمام :

وقد تألف العين الدجى وهو قيدها ويرجى شفاء السم والسم قاتلُ

فقال البحتري :

ويحسن داؤها والموت فيه وقد يستحسن السيف الصقيلُ

ومثل هذا كثير ومهما التمس اصحاب البحتري المعاذير له من ذلك كقولهم : « ان ما أخذه من ابي تمام يشترك الناس فيه وتجري طباع الشعراء عليه ولم يعتمد اخذه وانما كان يطرق سمعه فيلتبس بخاطره فيورده » فانه غير بريء من هذه الزلة ، وهي وان عمّت بها البلوى بين الشعراء قديمهم وحديثهم فنصيب البحتري منها اكثر وسهمه اوفر . هذا المتنبي على جلالة قدره لم تكتب له العصمة منها فانه استعار معاني كثير من الشعراء واليك بعض ما عدا به على سرح شعر البحتري :

قال المتنبي : في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرون بالآذان

أخذه من قول البحتري :

ومقدم الأذنين يحسب انه بها رأى الشخص الذي لا يأمن

وقال المتنبي : حتى رجعت واقلامي قوائل لي المجد للسيف ليس المجد للقلم

اكتب بنا ابداً بعد الكتاب به فانما نحن للاسياف كالخدم

اخذه من قول البحتري :

تعنو له وزراء الملك خاضعة وعادة السيف ان يستخدم الخدما

وقال المتنبي :

وما شئت الا ان ادل عواذلي على ان رأيي في هواك صواب

واعلم قوماً خالفوني وشرقوا وغرّبت اني قد ظفرت وخابوا

اخذه من قول البحتري :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واشهد اني في اختيارك دونهم مؤدياً الى حظي ومتبعٌ رشدي

* * *

وقد بقي ان نعرض للمفاضلة بين ابي تمام و بين البحتري وخلاصة مايحتج به اصحاب ابي تمام :انه انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه اماماً متبوعاً حتى قيل هذا مذهب ابي تمام ، وانه كان مشهوداً له بالعلم والشعر والرواية وان العلم في شعره اظهر ، وانه اتى في شعره بمعانٍ فلسفية ، وان احسانه انتشر في الآفاق وسارت به الركبان وتمثل به المتمثل وتأدب بحفظه وانشاده المتأدب ، وانه لايدفع عن لطيف المعاني ودقيقها والابداع والاغراب والاستنباط لها ، وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بتنويع الفاظه على كثرة غرامه بالطباق والتجنيس والمماثلة .

وخلاصة مايحتج به اصحاب البحتري : ان شعره شديد الاستواء وانه لايسقط ولا يسفسف ، وانه مافارق عمود الشعر وطريقته المعهودة مع مافي شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة التي يفخر بها اصحاب ابي تمام ، وانه انفرد بحسن العبارة وحلاوة الالفاظ وصحة المعاني ، وكان يتعمد حذف الغريب والوحشي من شعره ليقربه من الفهم الا ان يأتيه طبعه باللفظة بعد اللفظة في موضعها من غير طلب لها ، وان معانيه مع جودة نظمه واستواء نسجه تصح بالنقد وتخلص على السبك ، وان ما اخذه من معاني ابي تمام هي معانٍ مشتركة لايختص بها شاعر دون آخر ، والبارع من معانيه والناخر من كلامه ليس فيه على كثرته حرف واحد مما اخذه من ابي تمام .

وخلاصة القول انك ان كنت ممن يميل الى الصنعة والمعاني الغامضة التي تستخرج بالغوص والفكرة ولا تلوي على غير ذلك فابو تمام عندك اشعر لامحالة .

وان كنت ممن يفضل سهل الكلام وقريبه ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة وحلو اللفظ وكثرة الماء والرونق وقرب المأتي وانكشاف المعاني فالبحتري اشعر عندك ضرورة .

والذي نراه انهما مختلفان لامتساويان ، شعر ابي تمام مصنوع وشعر البحتري مطبوع ، والمفاضلة بينهما كالمفاضلة بين من يجهد الضرب على العود وبين من خلقه الله حسن الصوت ، ولقد انتهت الرئاسة اليهما ، وهما هما ، سقى الله عهدهما .

خليل مردم بك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net